
أوليڤر تويست
الروايات المشهورة

أوليڤر تويست





رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي – الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٢

رقم الإيداع : ٩٦٧٣ / ١٩٩١

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ – ١٦ – ٠٠٧٣ – ٧

طبع في دار نوبار للطباعة

أوليڤر تويست



الروايات المشهورة



تأليف : تشارلز ديكنز

أعدتها بالعربية : آمال رضوان

رسوم : محمد قطب

مكتبة لبنان

الفصل الأول

مَوْلِدُ أوليڤر تويست

وُلِدَ أوليڤر تويست واهِنَ الجِسْم شاحِبَ الوَجْهِ في مَكانٍ يُدْعى «المَلْجَأ» وهو مَكانٌ يُؤْوي مَنْ لا عائِلَ لهَمْ ولا مَأْوَى. وظَلَّ بلا حَراكٍ فَتْرَةً حَتَّى ظَنَّ الطَّبيبُ الَّذي أخْرَجَهُ للنّورِ أنَّهُ لنْ يَعيشَ، وَلنْ يَرَى النّورَ.

وَلكِنْ لمْ تَكَدْ تَمُرُّ بِضْعُ دَقائِقَ أو رُبَّما بِضْعُ ثوانٍ حَتَّى بَدَأتِ الحَياةُ تَدِبُّ في أوْصالِ الوَليدِ، وأخَذَ يَتَنَفَّسُ ثُمَّ أطْلَقَ صَرْخَةَ الحَياةِ.

أمَّا الأُمُّ الشّابَّةُ فَقَدِ اسْتَطاعَتْ أنْ تَرْفَعَ رَأسَها بِوَهَنٍ بالِغٍ، وَهِيَ مُمَدَّدةٌ فَوْقَ السَّريرِ، وَتُطِلُّ بِوَجْهِها الشَّاحِبِ مِنْ فَوْقِ الوِسادَةِ على ما حَوْلها، وَتَقولُ في صَوْتٍ واهٍ: «أريدُ أنْ أرى وَليدي قَبْلَ أنْ أموتَ.»



وطَمْأنَها الطَّبيبُ، وَحَمَلَ الطِّفْلَ الواهِنَ بِرِفْقٍ شَديدٍ ووَضَعَهُ بَيْنَ ذِراعَيْها. وَبِشَفَتَيْنِ مُرْتَعِشَتَيْنِ طَبعَتِ المَرْأَةُ قُبْلَةً حنونًا فَوْقَ جَبينِ الطِّفْلِ، وَحَمْلقَتْ في ذُهُولٍ حَوْلها، ثم اسْتَلقَتْ عَلى ظَهْرِها، وَقَدْ فارَقَتْها الحَياةُ.

نَهَضَ الطَبيبُ وَرَفَعَ الطِّفلَ مِنْ بَيْنِ ذِراعَيْها، وَقالَ للمَرْأَةِ العَجوزِ الَّتي كانَتْ تُساعِدُهُ: «مِسْكينَةٌ هذِهِ الفَتاةُ! لقد كانَتْ حَسْناءَ. هَلْ تَعْرِفينَ مِنْ أَيْنَ أَقْبَلتْ؟»

رَدَّتِ المَرْأَةُ: «لا أَحَدَ يَعْلَمُ. لَقَدْ عَثَرَ عَلَيْها المارَّةُ مُلقاةً عَلى قارِعَةِ الطَّريقِ، فَحَمَلوها إلى هُنا. وَلكِنْ يَبْدو أَنَّها جاءَتْ مِنْ مَكانٍ قَصِيٍّ؛ فَقَدْ كانَ حِذاؤُها مُتَهَرِّئًا.»

هَزَّ الطَّبيبُ رَأْسَهُ، وَرَفَعَ يَدَ المَرْأَةِ اليُسْرى وَهُوَ يَتَفَحَّصُ أَصابِعَها، وَغَمْغَمَ قائِلًا: «نَفْسُ القِصَّةِ القَديمَةِ. بِدونِ خاتَمِ زَواجٍ! طابَتْ لَيْلَتُكِ.»

نامَ الجَميعُ مُؤَقَّتًا، ونامَتِ الأمُّ إلى الأَبَدِ.

الفصل الثاني

أعْوام الشَّقاءِ الأولى

بَعْدَ رَحيلِ الأمِّ تَعَهَّدَت المَرْأةُ العَجوزُ بِرِعايَةِ أوليڤر نَحْوَ ثَمانِيَةِ شُهورٍ أصْبَحَ بَعْدَها قادِرًا على الابْتِسامِ ونُطْقِ بَعْضِ الكَلِماتِ. ثُمَّ أُرْسِلَ إلى أَحَدِ المَلاجِئِ الفَرْعِيَّةِ على بُعْدِ عِدَّةِ كيلومِتْراتٍ مِنْ مَقَرِّ المَلْجَأ الرَّئيسِيِّ، حَيْثُ يُعْهَدُ إلى سَيِّدَةٍ عَجوز تُدْعَى السَّيِّدَةَ «مان» بَتَرْبيَةِ وَرِعايَةِ نَحْوِ عِشْرينَ أوْ ثَلاثِينَ طِفْلًا، في نَظيرِ مَبْلغٍ مِنَ المالِ تَحْصُلُ عَلَيْهِ مِنَ الحُكُومَةِ أسْبوعِيًّا. بَيْدَ أنَّ السَّيِّدَةَ مان كانَتْ تُنْفِقُ مُعْظَمَ هذا المال على نَفْسِها، وَتُنْفِقُ عَلى الأطْفالِ ما لا يَكادُ يُقيمُ أوَدَهُم؛ وقد أدَّى هذا إلى مَوْتِ كَثيرٍ مِنْهُم جوعًا.

نَشَأ الطِّفْلُ أوليڤر تويست في ظِلِّ هذه الظُّروفِ هَزيلًا، نَحيلًا. وَعِنْدما كانَ عِيدُ مِيلادِهِ التَّاسِعِ لِمْ يَحْتَفِلِ الطِّفْلُ بِهذِهِ المُناسَبَةِ

وَسْطَ أقْرانِه، بَلْ قَضَى هذا اليَوْمَ مَحْبوسًا في قَبْوٍ (سِردابٍ) مُظْلِم هُوَ وَاثْنانِ مِنْ زُملائِهِ بَعْدَ أن نالا ضَرْبًا مُبَرِّحًا بِيَدِ السَّيِّدةِ مان لأَنَّهُمْ تَجَرَّءوا، وأَخْبَروها بأَنَّهُمْ جَوْعَى.

مَرَّتِ الأَيّامُ عَلى هذا المِنْوالِ، إلى أنْ حَضَرَ فَجْأَةً السَّيِّدُ بامبيل، أحَدُ مُشْرِفي المَلْجَأ. وهو رَجُلٌ بَدينٌ، لَدَيْهِ إحْساسٌ تامٌّ بِأَهَمِّيَتِهِ وَمَكانَتِهِ، وقد جاءَ لِيَعودُ بأوليڤر تويست إلى المَقَرِّ الرَّئيسِيِّ لِلْمَلْجَأ، حَيْثُ إنَّ الصَبِيَّ قَدْ بَلغَ التّاسِعَةَ وعَلَيْه أنْ يُغادرَ دارَ السَّيِّدةِ مان.

غَسَلَتِ السَّيِّدةُ مان وَجْهَ أوليڤر تويست وَيَدَيْه عَلى عَجَلٍ حتَّى يَبْدُوَ نَظيفًا في نَظَرِ السَّيِّد بامبيل، ثم اقْتادَتْه إلَيْه، فَلَمَّا رآهُ بادَرَهُ قائِلًا: «هَل تُحِبُّ أنْ تَأْتي مَعي، يا أوليڤر؟»

كادَ الصّبِيُّ يَصْرُخُ قائِلًا بِأَنَّهُ على أتَمِّ اسْتِعْدادٍ للذَّهابِ إلى أيِّ مَكانٍ بَعيدٍ عَنِ السَّيِّدَةِ مان، غَيْرَ أَنَّها لوَّحَتْ لهُ بِقَبْضَتِها مِنْ خَلفِ ظَهْرِ السَّيِّد بامبيل، فَلزِمَ أوليڤر الصَّمْتَ على الفَوْرِ، ثُمَّ سَأَلَ بِصَوْتٍ خَفيضٍ: «هَل سَتأتي السَّيِّدَةُ مان مَعَنا؟»

أجابَ: «لا، وَلكِنَّها سَتَأتي لِزِيارَتِكَ بَيْنَ الحينِ وَالآخَرِ.»

تَظاهَرَ أوليڤر بالحُزْنِ لِفراقِها، وانْهَمَرَتِ الدُّموعُ غَزيرَةً على وَجْنَتَيْهِ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْهِ البُكاءُ، لَقَدِ اعْتادَ ذلكَ، وَتَمَرَّنَ عَلَيْهِ حَيْثُ يَكْفيهِ أنْ يَتَذَكَّرَ أيّامَ الجوعِ، والمُعامَلَةَ السَّيِّئَةَ الَّتي تَلَقَّاها، لِكَيْ يَذْرِفَ أنْهارًا مِنَ الدُّموعِ.

وَوَدَّعَتْهُ السَّيِّدَةُ مان بِوابِلٍ مِنَ القُبُلاتِ، كَأَنَّها تُريدُ أنْ تُغَطِّي الحُزْنَ المُطِلَّ مِنْ مَلْمَحٍ مِنْ مَلامِحِ وَجْهِهِ الجَميلِ الحَزينِ. والأَهَمُّ مِنْ ذلكَ، أنها أَمَدَّته بِكِسْرَةِ خُبْزٍ، وقِطْعَةِ زُبْدٍ حَتَّى لا يَبْدُو كالعادَةِ جائِعًا نَهِمًا حينَ يَذْهَبُ إلى المَقَرِّ الرئيسيِّ لِلْمَلْجَأ.

مَضى أوليڤر مَعَ السَّيِّد بامبل بَعيدًا عَنِ المَكانِ الَّذي لَمْ يَرَ فيهِ خَيْرًا، وَلَمْ يَجِدْ بِهِ راحةً، وَلَمْ يَسْمَعْ فِيه كَلِمَةَ عَطْفٍ واحِدَةً تُضِيءُ ظَلامَ أَعْوامِ الشَّقاءِ الأولى القاسِيَةِ.

وَلكِنْ لَمْ تَخْتَلِفِ الحَياةُ في هذا المَلْجَأ كَثيرًا عَنْها في دارِ السَّيِّدَة مان؛ إذْ كانَ عَلى الأَوْلادِ أنْ يَعْمَلوا وَهُمْ ما زالوا صِغارًا، لِيَكْسِبوا قُوتَ يَوْمِهِمْ. أمَّا طَعامُهُمْ، فَلَمْ يَكُنْ سِوى ثَلاثِ وَجَباتٍ ضَعيفةٍ مِنَ حَساءٍ قليلِ الدَّسَمِ يَوْميًّا، وَبَصَلَتَيْنِ أسْبوعِيًّا، وَبَعْضِ الخُبْزِ في أيَّامِ الآحادِ.

كانَ الأَوْلادُ يَتناوَلونَ طَعامَهُمْ في حُجْرةٍ فَسيحَةٍ، مَبْنِيَّةٍ مِنَ الحجارَةِ وُضِعَت عِنْدَ أَحَدِ أطْرافِها قِدْرُ حَساءٍ ضخمةٌ، يَقِفُ عليها مُشْرِفٌ يُوَزِّعُ عَلى كُلِّ طِفْلٍ مِلْءَ مِغْرَفَةٍ صغيرةٍ في كُلِّ وَجْبَةٍ فيما عَدا أَيّامَ الأَعْيادِ فإنه يُوَزِّعُ عَلَيْهِمْ مِلْءَ مِغْرَفَتَيْنِ وَرُبْعَ رَغيفٍ؛ مُراعاةً لِلمُناسَباتِ السَّعيدةِ.

ظَلَّ الأَوْلادُ يُعانونَ مِنْ سُوءِ التَّغْذيَةِ، وَقِلَّةِ الطَّعامِ لِبِضْعَةِ أَشْهُرٍ إلى أَنْ حَدَثَ ذاتَ يَوْمٍ أَنْ صَرَّحَ أَحَدُ الأَوْلادِ، وكانَ يَبْدو أَضْخَمَ جِسْمًا مِنْ نُظَرائِهِ، بِخَوْفِهِ وَقَلَقِهِ مِنْ أَنْ يأتي اليَوْمُ الَّذي يَلتَهِمُ فيهِ زَميلَهُ الَّذي يُجاوِرُهُ في الفِراشِ. وإزاءَ هذا الَّذي قيلَ، كانَ لِزامًا أَنْ يَتَقَدَّمَ أَحَدُ الأَوْلادِ بَعْدَ العَشاءِ إلى المُشْرِفِ طالِبًا المَزيدَ مِنَ الحَساءِ. وأُجْرِيَتْ قُرْعَةٌ ووَقَعَ الاخْتِيارُ عَلى أوليڤر تويست.

وَجاءَ مَوْعِدُ العَشاءِ فجَلَسَ الأَوْلادُ أَمامَ مَوائِدِ الطَّعامِ بَيْنَما اتَّخَذَ الطّاهي مَكانَهُ بِجانِبِ القِدْرِ الضَّخْمَةِ مُرْتَدِيًا زِيَّهُ، وَمِنْ خَلفِهِ مُساعِدَتاهُ. وَما إنْ أَخَذَ كُلُّ وَلَدٍ نَصيبَه حتى اخْتَفَى الحَساءُ سَريعًا، وَهُنا هَمَسَ الأَوْلادُ لِبَعْضِهِم بَعْضًا، ثُمَّ أَعْطَوْا إشارَةً لأوليڤر الَّذي أَمْسَكَ بِصَحْنِهِ، وتَقَدَّمَ بِخُطًى ثَقيلةٍ نَحْوَ المُشْرِفِ وَقالَ لهُ:

«مِنْ فَضْلِكَ، يا سَيِّدي، أُريدُ مَزيدًا من الحَساء.»



شَحَبَ وَجْهُ المُشْرِفِ البَدين، وَحَدَّقَ إلى وَجْهِ الطِّفْلِ الصَّغيرِ ذاهِلًا غَيْرَ مُصَدِّقٍ ما يَقولُ، وَسَألَهُ بِصَوْتٍ غاضِبٍ مُرْتَعِشٍ: «ماذا تَقولُ؟»

أجابَ أوليڤر: «مِنْ فَضْلِكَ، يا سَيِّدي، أريدُ مَزيدًا من الحَساءِ.»

وَما كانَ مِنَ المُشْرِفِ إلّا أنْ وجَّهَ ضَرْبَةً بِمِغْرَفَتِهِ الكَبيرةِ على رَأسِ أوليڤر مُكَتِّفًا إيّاه بِذِراعَيْهِ وَهُو يَصْرُخُ طالبًا السَّيِّد بامبيل، الَّذي هُرِعَ عَلى صُراخِهِ إلى حُجْرَةِ الطَّعامِ. ولمّا عَلِمَ بِالأَمْرِ، دَعا مَجْلِسَ المَلْجَأ إلى اجْتِماعٍ عاجِلٍ للبَتِّ في أَمْرِ هذا الطِّفْل المُشاغِبِ الَّذي جَرُؤ، وَطَلَبَ مَزيدًا مِنَ الطَّعامِ. وَبَعْدَ مُشاوراتٍ، انْفَضَّ المَجْلِسُ، وَفي الصَّباحِ، عُلِّقَتْ لافِتَةٌ عَلى بابِ المَلْجَأ تَعْرِضُ مُكافَأةً خَمْسَةَ جُنَيْهاتٍ لِمَنْ يَتَكَفَّلُ بأوليڤر تويست بَعيدًا عَنِ المَلْجَأ.

الفصل الثالث

أوليڤر وَمُنَظِّفَ المداخِن

ظَلَّ أوليڤر بَعْدَ اقْتِرافِهِ جَريمَتَهُ الشَّنْعاءَ حَبيسًا في غُرْفَةٍ مُظْلِمَةٍ، كَئيبَةٍ لِعِدَّةِ شُهورٍ، غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يُحْرَمْ مِنْ رُؤْيَةِ أَصْدِقائِهِ، فَقَدْ كانَ المُشْرِفُ يَأْخُذُهُ إِلى حُجْرَةِ الطَّعامِ مَرَّةً كُلَّ يَوْمَيْنِ، وَيَكيلُ لَهُ الضَّرْبَ أَمامَهُمْ، حَتَّى يَكونَ عِبْرَةً لِمَنْ يَعْتَبِرُ.

وَفي أَحَدِ الأَيَّامِ، تَصادَفَ أَنْ مَرَّ بِجِوارِ المَلْجَأَ رَجُلٌ تَبْدو عَلَيْهِ سِماتُ القَسْوَةِ وَيَعْمَلُ في تَنْظيفِ المَداخِنِ. وَكانَ الرَّجُلُ يُعاني مِنْ ضائِقَةٍ مالِيَّةٍ، وَلَمّا وَقَعَتْ عَيْناهُ عَلى اللّافِتَةِ، دَخَلَ عَلى الفَوْرِ لِمُقابَلَةِ السَّيِّدِ بامبيل وَطَلَبَ اصْطِحابَ أوليڤر تويست مُقابِلَ الجُنَيْهاتِ الخَمْسَةِ.

وفي الحالِ تَمَّتِ الصَّفْقَةُ، وَلَمْ يَبْقَ سِوَى أَنْ يُوَقِّعَ القاضِي عَلى الأَوْراقِ.

ذَهَبَ كلٌّ من السَّيِّد بامبيل وأوليڤر وَمُنَظِّفُ المَداخِنِ إلى القاضي، وَبَعْدَ عِدَّةِ أَسْئِلَةٍ تَقْليدِيَّةٍ وَجَّهها القاضي لثلاثَتِهِم، طَلَبَ مِنْ مُنَظِّفِ المداخِنِ أنْ يُحْسِنَ مُعامَلَةَ الغُلامِ. وَهَمَّ القاضي بأنْ يُوَقِّعَ على الأَوْراقِ لوْلا تَدَخُّلُ القَدَرِ في اللَّحْظَةِ المُناسِبَةِ، إذ وَقَعَتْ عَيْناهُ على وَجْه أوليڤر الشَّاحِبِ المَذْعورِ، فَبادَرَهُ قائِلًا:

«ما الأمْرُ يا بُنَيَّ؟ إنَّكَ تَبْدو وَجِلًا فَزِعًا. ابْتَعِدْ عَنْهُ قَليلًا يا سَيِّدُ بامبيل. والآنَ، تَكَلَّمْ يا بُنَيَّ... ما الأمْرُ؟

جَثا أوليڤر عَلى رُكْبَتَيْهِ، وَضَمَّ يَدَيْهِ مَعًا على صَدْرِهِ، وأَخْبَرَ القاضي بأنَّهُ يُفَضِّلُ أنْ يَعودَ إلى الحُجْرَةِ المُظْلِمَةِ، ويُعاني مِنَ الجوعِ، وَالعَذابِ، وَالضَّرْبِ، على الذَّهابِ مَعَ هذا الرَّجُلِ المُخيفِ.

صُعِقَ بامبيل مِنْ رَدِّ أوليڤر، وَقالَ: «لَقَدْ رَأَيْتُ الكَثيرَ مِنَ الأَوْلادِ الماكِرينَ، ولكِنِّي لَمْ أرَ أوْقَحَ ولا أَجْرَأَ مِنْكَ عَلى الإطْلاقِ...»

قاطَعَهُ القاضي قائلًا: «صَهْ يا بامبيل! إنَّني أَرْفُضُ تَوْقيعَ الأَوْراقِ. عُدْ بِالطِّفْلِ من حَيْثُ أَتَيْتَ وَأَحْسِنْ مُعامَلَتَهُ.»

وَفي الصَّباحِ عَلِمَ الجَميعُ أنَّ أوليڤر قَدْ عادَ إلى سِجْنِهِ ثانِيَةً.

الفصل الرابع

أوليڤر يَعْمَلُ لدى مُتَعَهِّدٍ لدَفْنِ الموْتى

كان السَّيّدُ بامبيل عائِدًا ذاتَ يَوْم إلى المَلْجأ، فَقَابَلَ رَجُلًا نَحيفًا طويلًا رَثَّ الثِّيابِ، يَرْتَدي ثِيابًا سَوْداءَ يَقِفُ أمامَ البَوّابَةِ فَلَمّا اقْتَرَبَ مِنْهُ، وَجَدَهُ السَّيِّدَ «سُورْبِري» مُتَعَهِّدَ دَفْنِ المَوْتى. فَتَجاذَبَ مَعَهُ أطْرافَ الحَديثِ عَنْ مِهْنَتِهِ الشّاقَّةِ، وَالمَشاكِلِ الَّتي يُعاني مِنْها وَلا سِيَّما في ظِلِّ النِّظامِ الجَديدِ الَّذي تَنْتَهِجُهُ الحُكومَةُ. وَانْتَهَزَ السَّيِّد بامبيل الفُرْصَةَ، وَسَأَلَهُ عمّا إذا كانَ يَعْرِفُ شَخْصًا يَحْتاجُ صَبِيًّا للعَمَلِ مَعَهُ. وَلِحُسْنِ حَظِّ السَّيِّدِ بامبيل كانَ الرَّجُلُ نَفْسُه في حاجَةٍ إلى صَبِيٍّ؛ وَعلى الفَوْرِ دَخَلَ الاثْنانِ المَلْجَأَ، وَتَمَّتِ الإجْراءاتُ سَريعًا. وَكانَ لِزامًا على أوليڤر أنْ يَذْهَبَ في نَفْسِ المَساءِ لِلعَمَلِ عِنْدَ سَيِّدِهِ الجديدِ.

تَلَقّى أوليڤر النَّبأَ في صَمْتٍ تامٍّ، وَحَمَلَ في يَدِهِ لِفافَةً مِنَ الوَرَقِ البُنِّيِّ بها كُلُّ مَتاعِهِ، وَسارَ مَعَ السَّيِّدِ بامبيل إلى مَكانٍ آخَرَ للعَذابِ.

سارَ الاثْنانِ صامِتَيْنِ. وَعِنْدما اقْتَربا مِنْ حانوت مُتَعَهِّدِ الدَّفْنِ السَّيِّدَ سُوَرْبري، نَظَرَ السَّيِّدُ بامبيل إلى أوليڤر ليَطْمَئِنَّ على هَيْئَتِهِ. وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنا أوليڤر بِالدُّموعِ، وَبَذَلَ مَجْهودًا عَنيفًا حَتَّى لا يَبْكيَ ولكِنْ خانَتْهُ دُموعُهُ، وانْهَمَرَتْ على وَجْنَتَيْهِ، فَغَطّى وَجْهَهُ بِكَفَّيْهِ وانْخَرَطَ في البُكاءِ.

انْهالَ السَّيِّدُ بامبيل بِالسَّبِّ عَلى أوليڤر، ووَصَفَهُ بِالجُحُودِ، ونُكْرانِ الجَميلِ، وَرَفَعَ عَصاهُ وَهَمَّ بِضَرْبِه لوْلا وُصولُهُما إلى حانوتِ السَّيِّدِ سُوَرْبري.

كانَ الرَّجُلُ قَدْ أغْلَقَ حانوتَه لتَوِّهِ، وَجَلَسَ يُسَجِّلُ حِساباتِ اليَوْم عَلى ضَوْءٍ واهِنٍ يَنْبَعِثُ من شَمْعَةٍ، عِنْدَما دَخَلَ عَلَيْهِ السَّيِّدُ بامبيل ومَعَهُ أوليڤر. وما إنْ رآهما حَتَّى حَمَلَ الشَّمْعَةَ، وَقَرَّبَها مِنْ وَجْهِ الصَّبِيِّ حتَّى يَراهُ بِعِنايَةٍ، ثُمَّ اسْتَدْعَى زَوْجَتَهُ لتُلْقِيَ بنَظْرَةٍ عَلى الصَّبِيِّ.

أَقْبَلَتِ الزَّوْجَةُ وَهِيَ سَيِّدَةٌ قَصيرَةٌ، نَحيفَةٌ، تَميلُ إلى المُشاكَسَةِ

وَالجِدالِ. وما إنْ وَقَعَتْ عَيْناها على الصَّبِيِّ حتَّى أَبْدَتْ دَهْشَتَها وقالتْ: «يا إلهي! إنَّه صَغيرٌ جِدًّا.»

ردَّ السَّيِّدُ بامبيل: «لا عَليْكِ، يا سَيِّدَتي.. سَيَكْبُرُ، بِالتَّأكيدِ، سَيَنْمو.»

«أشكُّ في أَنَّهُ سَيَنْمو مَعَ كميَّةِ الطَّعامِ الَّتي سَيَتَناوَلها عِنْدَنا. تَبًّا لأطْفالِ المَلاجِئِ! إنَّهُمْ يُكَلِّفونَنا أكْثَرَ مِمَّا يَسْتَحِقُّونَ. وَالآنَ، هَيَّا إلى القَبْوِ أيُّها الهَيْكَلُ العَظْمِيُّ!»

فَتَحَتِ الزَّوْجَةُ بابًا جانِبِيًّا، وَدَفَعْت أوليڤر داخِلَ حُجْرَةٍ مُظْلِمَةٍ، رَطْبَةٍ تُسْتَخْدَمُ مَطْبَخًا، تَقْبَعُ فيها فَتاةٌ تَرْتَدي حِذاءً مُتَهَرِّئًا، وَجَوْرَبًا أَزْرَقَ باليًا.

دَخَلَتْ زَوْجَةُ السَّيِّدِ سُورْبِري خَلْفَ أوليڤر، وصاحَتْ:

«شارلوت... قَدِّمي لأوليڤر بَعْضًا مِنْ طَعامِ الكَلبِ.»

اتَّسَعَتْ حَدَقَتا أوليڤر عِنْدَ ذِكْرِ الطَّعامِ، وَفي الحالِ قَدَّمَتْ لهُ الفَتاةُ طَبَقًا مِنْ بقايا اللحْمِ المُقَدَّدِ، فأَجْهَزَ عَلَيْهِ أوليڤر في ثَوانٍ.

وظَلَتِ السَّيِّدةُ سُورْبِري تُراقِبُهُ في فَزَعٍ؛ وَبَعْدَ أنْ فَرَغَ مِنْ

طَعامِهِ قالتْ لهُ: «الآنَ، هيّا مَعي.» ثُمَّ تناوَلتْ مِصْباحًا قَذِرًا، وَصَعِدَتِ السُّلمَ، وتابَعَتْ كَلامَها: «سَيكونُ مكانُ نَوْمِكِ أسْفَلَ المِنْضَدَةِ. أظُنُّ أنَّهُ ليْسَ لدَيْكَ مانِعٌ مِنَ النَّوْمِ وَسْطَ التَّوابيتِ، وَحَتّى إذا كانَ لدَيْكَ مانِعٌ، فَليْسَ لكَ مَكانٌ آخَرُ.»

ولمْ يَرُدَّ أوليڤر، وَسارَ طائعًا خَلفَ سَيِّدَتِهِ الجَديدَةِ.

الفصل الخامس

نوح كلايبول

قَبَعَ أوليڤر وَحيدًا في حانوت مُتَعَهِّدِ دَفْنِ المَوْتَى، ووضَعَ المِصْباحَ الواهِنَ عَلى حافةِ المَقْعَدِ، وَحَدَّقَ حَوْلهُ في أرْجاءِ المكان؛ فلمْ تَقَعْ عَيناهُ إلّا عَلى الأكْفانِ، وَالتَّوابيتِ. وأخَذَتِ الخَيالاتُ المُرْعِبَةُ تَتَسَلَّلُ إلى نَفْسِهِ حَتَّى غَلَبَهُ النُّعاسُ.

اسْتَيْقَظَ أوليڤر في الصَّباحِ عَلى صَوْتِ خَبَطاتٍ عَنيفَةٍ عَلى البابِ الخارِجِيِّ، وَجاءَهُ مِنَ الخارِجِ صَوْتٌ آمِرٌ: «افْتَحِ البابَ!»

رَدَّ أوليڤر: «حالًا، يا سَيِّدي.»

بادَرَهُ الصَّوْتُ مِنَ الخارِجِ: «هَلْ أنْتَ الصَّبِيُّ الجَديدُ؟ كَمْ عُمْرُكَ؟»

«عَشْرُ سَنَواتٍ، يا سَيِّدي.»

«إذًا سَأَجْلِدُكَ عِنْدَما أَدْخُلُ عَشْرَ جَلَداتٍ.»

وَبَعْدَ هذا الوَعْدِ الكَريمِ، بَدَأَ المُتَحَدِّثُ يُصَفِّرُ.

دَفَعَ أوليفر المِزْلاجَ (مِغلاق البابِ) بِيَدٍ مُرْتَعِشَةٍ، وَفَتَحَ البابَ وَنَظَرَ إلى الشّارِعِ؛ فَلَمْ يَرَ سِوَى فتًى يَجْلِسُ على مَقْعَدٍ أمامَ المَنْزِلِ، وَيَلتَهِمُ شريحَةً مِنَ الخُبْزِ.

سَأَلَهُ أوليفر بِأَدَبٍ: «مَعْذِرَةً، يا سَيِّدي! هَلْ أَنْتَ الَّذي طَرَقَ البابَ؟»

أَجابَ الفَتى: «أنا رَكَلتُ البابَ.»

سَأَلَهُ أوليفر في بَراءَةٍ: «هَلْ تُريدُ كَفَنًا، يا سَيِّدي؟»

ظَهَرَ الغَضَبُ عَلى مَلامِحِ الفَتى وَقالَ: «بَلْ أَنْتَ الَّذي سَيَحْتاجُ إلى كَفَنٍ قَريبًا إذا سَخِرْتَ مِنْ أَسْيادِكَ مَرَّةً ثانِيَةً! ألا تَعْرِفُني يا رَبيبَ المَلْجَأ؟ أنا السَّيِّدُ نوح كلايبول، وَأَنْتَ تَعْمَلُ تَحْتَ إِمْرَتي. احْمِلْ هٰذِهِ الأشياءَ للدّاخِلِ.» ثُمَّ رَكَلَهُ وَدَخَلَ إلى الحانوتِ.

تَبِعَ أوليڤر نوح، وما إنْ رَأَتْهُما شارلوت حَتَّى بادَرَتْهُما قائِلَةً: «اقْتَرِبْ مِنَ المِدْفَأَةِ يا نوح. لقَدِ احْتَفَظْتُ لكَ بِشريحةِ لحْم مِنْ إفْطار سَيِّدي، وَأَنْتَ، يا أوليڤر، أَغْلِقِ البابَ خَلفَ السَّيِّدِ نوح، وتَنَاوَلْ قَدَحَ الشَّاي هذا في ذلك الرُّكْنِ، هَلْ سَمِعْتَ؟»

عَقَّبَ نوح على كَلامِها قائِلًا: «هَلْ سَمِعْتَ، يا رَبيبَ المَلْجَأ؟»

انْفَجَرَتْ شارلوت ضاحِكَةً، وانْضَمَّ إليْها نوح، ثُم نَظَرَا مَعًا إلى أوليڤر بازْدراءٍ وَهُوَ يَرْتَعِدُ خَوْفًا في رُكْنِ الحُجْرَةِ البارِدِ، وَيَحْتَسي الشّاي، ويَقْتاتُ بِفُتاتِ الخُبْزِ المُتبقِّي لهُ.

وكانَ نوح قَدْ نَشَأَ في إحْدَى دور المُؤَسَّساتِ الخيْرِيَّةِ، ولكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَتيمًا مِثْلَ أوليڤر، إذْ كانَتْ أمُّهُ غَسَّالةً، وكانَ أَبُوهُ جُنْدِيًّا سِكِّيرًا.

وَظَلَّ أوليڤر يَتَحَمَّلُ المُعامَلَةَ السَّيِّئَةَ الَّتي يَلْقاها مِنْ نوح دُونَما شَكْوَى، إلى أنْ جاءَ ذلكَ اليَوْمُ.

هَبطَ أوليڤر ونوحٌ إلى المَطْبَخِ وَقْتَ الغَداءِ كالمُعْتادِ، ورَفَعَ نوح قَدَمَيْه عَلى مِفْرَشِ المائِدَةِ، ثُمَّ جذَبَ شَعْرَ أوليڤر لِيُضايِقَهُ. وَلمّا

رأى أنَّ أوليفر لمْ تَخْرُجْ مِنْهُ صَرْخَةٌ واحِدَةٌ سألهُ:

«كَيْفَ حالُ والدَتِكَ، يا رَبيبَ المَلْجَأ؟»

اِحْمَرَّ وَجْهُ أوليفر خَجَلًا، وتَلاحَقَتْ أنْفاسُهُ، وَأجابَ: «لَقَدْ ماتَتْ والدتي، فلا داعي لِذِكْرِها.»

لاحَظَ نوحٌ تَغَيُّرَ وَجْهِ أوليفر، ورأى أنَّهُ يوشِكُ أنْ يَبْكي فاسْتَطْرَدَ: «وما سَبَبُ وَفاتِها، يا رَبيبَ المَلْجَأ؟»

رَدَّ أوليفر وَالدُّموعُ تَتَرَقْرَقُ في مُقْلَتَيْهِ: «قالوا لي إنَّها ماتَتْ كَسيرَةَ الفُؤادِ! وَالآنَ كَفى، ومِنَ الأفْضَلِ لَكَ ألا تُحَدِّثَني عَنْها.»

«مِنَ الأفْضَلِ لي؟ حَسَنٌ فَلتَعلَمْ، يا رَبيبَ المَلْجَأ، أنَّ وَالِدَتَكَ كانَت امْرَأَةً سَيِّئَةً، وخَيْرًا فَعَلتْ أنْ ماتَتْ؛ إذْ كانَ لا بدَّ لها أنْ تُسْجَنَ، أو تُشْنَقَ!»

وهَبَّ أوليفر كالثَّوْرِ الهائِجِ وَدَفَعَ الكُرْسِيَّ وَالمِنْضَدَةَ، وَقَبَضَ على عُنُقِ نوح، ثُمَّ اسْتَجْمَعَ كُلَّ ما أوتِيَ مِنْ قُوَّةٍ، وَسَدَّدَ لكْمَةً قَوِيَّةً إلى وَجْهِ نوح طَرَحَتْهُ أرْضًا، فَأخَذَ نُوحٌ يَصْرُخُ:



«النَّجْدَةَ! سَيَقْتُلُني... شارلوت... سَيِّدَتي... الصَّبِيُّ الجَديدُ سَيَقْتُلُني! أغيثوني! لَقَدْ جُنَّ أوليڤر!»

واسْتَغاثَتْ شارلوت، وَصَرَخَتِ السَّيِّدةُ سُوَرْبِري وَهَرْوَلتْ نَحْوَ المَطْبَخ، وَانْدَفَعَتْ شارلوت نَحْوَ أوليڤر، وَأمْسَكَتْ بِهِ، وَأَخَذَتْ تَكيلُ لهُ الضَّرَباتِ، وَهِيَ تَصْرُخُ.

وفي الوَقْتِ نَفْسِهِ أمْسَكَتِ السَّيِّدَةُ سُوَرْبِري أوليڤر بإحْدَى قَبْضَتَيْها، وَأَخَذَتْ تَضْرِبُه بالأُخْرى. ثُمَّ نَهضَ نوحٌ، وانْضَمَّ إلَيْهِما، وَعِنْدما خارَتْ قُواهُم جَميعًا وَمَعُهْم الصَّبيُّ من جَرّاءِ الضَّرْبِ المُبرِّحِ، سَحَبوهُ إلى القَبْوِ، ثُمَّ أوْصَدوا عليه البابَ.

غاصت السَّيِّدَةُ سُوَرْبِري في مَقْعَدِها، وَانْخَرَطَتْ في بكاءٍ عنيفٍ حَتَّى كادَ يُغْشَى عَلَيْها، فَهُرِعَ نوح، وَأَحْضَرَ كوبًا مِنَ الماءِ البارِدِ، وَصَبَّهُ عَلى رَأسِها، وَكَتِفَيْها. وَبَعْدَ أنْ أفاقَتْ، قالَتْ بأنْفاسٍ لاهِثَةٍ:

«الحَمْدُ لِلَّه، يا شارلوت، أنَّه لَمْ يَقْتُلْنا جَميعًا وَنَحْنُ نِيامٌ في أماكِنِنا!»

رَدَّتْ عَلَيْها شارلوت: «لَعَلَّ هذا يُقْنِعُ سَيِّدي بِألا يَجْلُبَ لنا

مَزيدًا مِنْ هَؤلاءِ الصِّبْيَةِ الذينَ وُلِدوا ليَكونوا قَتَلةً، وسفَّاحين ولُصوصًا. ومِسْكينٌ نوح! كادَ الصَّبِيُّ يَقْتُلُه لَحْظَةَ دُخولي عَلَيْهِمَا، لولا تَدَخُّلي بَيْنَهُما.»

«والآنَ ما العَمَلُ؟ فالسَّيِّدُ ليْسَ مَوْجودًا ولا بُدَّ أَنَّه سيَتَمَكَّنُ مِنْ كَسْرِ البابَ خلالَ عَشْرِ ثوانٍ، وسَيَهْجُمُ عَلَيْنَا! أَسْرِعْ يا نوح إلى السَّيِّدِ بامبيل وأَخْبِرْهُ بأَنْ يَحْضُرَ في الحالِ. أَسْرِعْ يا نوح!»

طارَ نوح بأَقْصَى سُرْعَةٍ، حَتّى بَلَغَ بوَّابَةَ المَلْجَأ، فَتَوَقَّفَ حَتَّى يَرْسُمَ عَلاماتِ البُكاءِ والفَزَعِ على وَجْهِهِ وَأَخَذَ يَطْرُقُ البابَ وهو يُنادي على السَّيِّدِ بامبيل الَّذي تَصَادَفَ مُرورُهُ بِجِوارِ البابِ، فانْدَفَعَ عَلى الفَوْرِ، وَسَأَله: «ما الأَمْرُ؟»

«أوليڤر، يا سَيِّدي! أوليڤر!»

قاطَعَهُ السَّيِّدُ بامبيل: «لا تَقُلْ إِنَّهُ هَرَبَ!»

«لا، لَمْ يَهْرُبْ، يا سَيِّدي، ولكِنَّهُ جُنَّ! حاوَلَ قَتْلي، ثُمَّ حاوَلَ قَتْلَ شارلوت، ثُمَّ سَيِّدَتي...»

وَبَدَأَ نُوحٌ يَتَلَوّى كالثُّعْبانِ حَتَّى يُقْنِعَ السَّيِّدَ بامبيل بِأَنَّهُ يَتَأَلَّمُ مِنْ

جَرّاءِ الهُجومِ الوَحْشِيِّ لأوليڤر.

أَلْقَى السَّيِّدَ بامبيل قُبَّعَتَهُ جانِبًا، وَأَخَذَ عَصاهُ، وَهُرِعَ مِنْ فَوْرِهِ مَعَ نوح إلى حانوت مُتَعَهِّدِ دَفْنِ المَوْتى.

كانَ أوليڤر لا يَزالُ يَطْرُقُ بابَ القَبْوِ عِنْدَما حَضَرَ السَّيِّدُ بامبيل، الَّذي خاطَبَهُ مِنْ خَلفِ البابِ:

«أوليڤر، هل تَسْمَعُني؟ هَلْ تَعْرِفُ مَنِ الَّذي يُحادِثُكَ؟ ألا تَرْتَعِدُ لمُجَرَّدِ سَماعِ صَوْتي؟»

صرخ أوليڤر: «أنا لا أَخْشَى أَحَدًا.»

قالتِ السَّيِّدَةُ سُوَرْبِري: «لقَدْ جُنَّ الصَّبِيُّ بِالتَّأكيدِ! كَيْفَ يَجْرُؤُ عَلى مُخاطَبَتِك بِهذِهِ اللَّهْجةِ؟ إنَّهُ...»

قاطَعَها بامبيل قائِلًا: «لَيْس جُنونًا، يا سَيِّدتي، بَلِ اللَّحْمُ هُو السَّبَبُ. لقَدْ أسْرَفْتِ في إطْعامِهِ. وَالحَلُّ الوَحيدُ الآنَ هُوَ أنْ تَتْرُكيهِ بِلا طَعام يَوْمًا أَوْ يَوْمَيْنِ، ثُمَّ عَلَيْكِ بالماء والحَساءِ طَوالَ فَتْرَةِ بَقائِهِ هُنا. لا شَيْءَ غَيْرُ الحَساءِ. هَلْ تَعْلمينَ، يا سَيِّدَتي، أنَّ الصَّبِيَّ سَليلُ أسْرَةٍ وَضيعَةٍ؟ لقَدْ أخْبَرَتْني المُمَرِّضَةُ وَالطَّبيبُ الَّذي

أشْرَفَ على وِلادَتِهِ بأنَّ والِدَةَ الصَّبيِّ قَدْ مَشَتْ طَرِيقًا طويلًا شاقًّا، وَتَحَمَّلَتْ آلامًا مُبَرِّحَةً كانَتْ كَفيلةً بالقَضاءِ على أيَّةِ سَيِّدَةٍ عفيفَةٍ في الحالِ!»

وما إن سَمِعَ أوليڤر ذِكْرَ والدَتِهِ، حَتَّى بَدَأ في الصِّياحِ ورَكْلِ البابِ بِعُنْفٍ. وَفي هذِهِ اللحْظَةِ عادَ السَّيِّدُ سُورْبِري، فَحَكَوْا لهُ بِمَزيدٍ مِنَ المُبالغَةِ عَمَّا فَعَلهُ أوليڤر؛ فَفَتَحَ بابَ القَبْوِ، وَسَحَبَ أوليڤر مِنْ ملابِسِهِ وَسَدَّدَ لهُ لكْمَةً قَوِيَّةً. وعِنْدَئِذٍ هَبَّ أوليڤر على أثَرِها مُدافِعًا عَنْ نَفْسِهِ وهُوَ يَصْرُخ: «لقَدْ سَبَّ وَالدَتي!»

رَدَّتِ السَّيِّدَةُ سُورْبِري: «وماذا في ذلكَ؟ إنَّها تَسْتَحِقُّ ما ذَكَرَهُ وأكْثَرَ.»

رَدَّ أوليڤر: «لا، ليْسَ صَحيحًا، هذا كَذِبٌ! كَذِبٌ وقِلةُ حَياءٍ!»

انْخَرَطَتِ السَّيِّدَةُ سُورْبِري في البُكاءِ، وَأمامَ دُموعِها، لمْ يَكُنْ أمامَ زَوْجِها سِوَى أنْ يُكيلَ لأوليڤر الضَّرباتِ القاسِيَةَ الَّتي جَعَلتْ عَصا السَّيِّدِ بامبيل بَعْدَ ذلكَ غَيْرَ صالحَةٍ لمزيدٍ مِنَ الضَّرْبِ، ثُمَّ حَبسوهُ في المَطْبَخِ الخَلْفِيِّ طَوالَ اليَوْمِ. وفي المساءِ أمَرَ السَّيِّدُ سُورْبِري بِنَقْلِهِ إلى فِراشِهِ الوَضيعِ.

قَبَعَ أوليڤر وَحيدًا في مكانِهِ المُظْلِمِ الكَئيبِ؛ ولمْ يَسمَحْ لِدموعِهِ أنْ تَخونَهُ أمامَهُم. اسْتَمَعَ إلى سِبابهم بِازْدراءٍ، تَحَمَّلَ الضَّرْبَ المُبَرِّحَ في جَلَدٍ وصَبْرٍ دونَ أن تَخْرُجَ مِنْهُ صَرخَةٌ واحِدَةٌ. وَلكِنِ الآنَ حَيْثُ لا أَحَدَ يَراهُ، أَوْ يَسمَعُهُ، جَثا عَلى رُكْبَتَيْهِ، ودَفَنَ رأسَه بَيْنَ كَفَّيْهِ، وَأطْلَقَ العِنانَ لِدُموعِهِ.

ظَلَّ أوليڤر عَلى هذه الحال بِلا حَراكٍ فَترةً طَويلةً، ثُمَّ نَهَضَ، وَحَدَّقَ حَوْلَهُ في حَذَرٍ، وأرْهَفَ السَّمْعَ جَيِّدًا، وَبِهدوءٍ، فَتَحَ رتاجَ (مِغْلاقَ) البابِ، وَنَظَرَ خارجًا. كانَتِ اللَيْلَةُ بارِدَةً موحِشَةً، وَألقَتِ الأَشْجارُ ظِلالًا مُخيفَةً عَلى الطُّرُقاتِ. وأغْلَقَ أوليڤر البابَ مَرَّةً ثانِيَةً، وَحَزَمَ مَتاعَهُ القَليلَ، وَجَلَسَ في انْتِظارِ انْبِلاجِ الصُّبْحِ.

وَمَعَ أَوَّلِ إشْراقَةٍ مِنَ الصَّباحِ، نَهَضَ أوليڤر، وَفَتَحَ البابَ، وألقَى نَظْرَةً مُتَرَدِّدَةً خاطِفَةً، ثُمَّ أغْلَقَ البابَ خَلفَهُ وأطْلَقَ ساقَيْهِ للرّيحِ في الشّارِعِ الفَسيحِ.

الفصل السادس

المحتالُ البارع

عِنْدما دَقَّتِ السَّاعَةُ الثَّامِنَةَ صَباحًا، كانَ أوليڤر قَدِ ابْتَعَدَ عَنِ المَدينةِ مسافةَ ثَمانِيَةِ كيلومِتْراتٍ. وظَلَّ يَعْدو تارَةً، وَيَخْتَبِئُ تارَةً أخرى خَشْيَةَ أنْ يَلحَقَ بِهِ أحَدٌ، وَيُعيدَهُ إلى الأسْرِ مَرَّةً أخْرَى. وَظَلَّ عَلى هذِهِ الحالِ، حَتَّى حلَّ المساءُ، وَلَحِقَهُ شعورٌ بالتَّعَبِ؛ فَجَلَسَ بالقُرْبِ من إحْدَى العَلاماتِ المَوْضوعَةِ عَلى الطَّريقِ، وطَفِقَ يُفَكِّرُ إلى أيْنَ المَسيرُ!

نَظَرَ أوليڤر إلى العَلامَةِ، فَوَجَدَها تُشيرُ إلى أنَّه يَتبَقَّى أكْثَرُ مِنْ مِائَةِ كيلومِتْرٍ إلى لندن. واندَفَعَتِ الأفْكارُ إلى رَأسِهِ لدَى قِراءَتِهِ لهذه الكَلِمَةِ.. لندن: تِلكَ المدينَةِ الواسِعَةِ، حَيْثُ لا يَسْتطيعُ أحَدٌ وَلا حَتَّى السَّيِّد بامبيل أنْ يَعْثُرَ عَلَيْهِ فيها. كانَ يَسْمَعُ مِنَ الكِبارِ

أَنَّه لنْ يَسْتَعْصِيَ على أيِّ صَبِيٍّ يَتَمَتَّعُ بحُضورٍ قَوِيٍّ وَحُسْنِ تَصَرُّفٍ أنْ يَكْسِبَ قوتَ يَوْمِهِ في لندن. وَعِنْدَ هذِهِ الفِكْرَةِ، هَبَّ عَلى قَدَمَيْهِ، وَعاوَدَ السَّيْرَ.

سارَ أوليڤر قُرابَةَ ثَلاثينَ كيلومِتْرًا في ذلكَ اليَوْمِ، ولَمْ يَذُقْ طعامًا سِوَى كِسْرَةٍ مِنَ الخُبْزِ الجافِّ. وفي المَساءِ دَخَلَ أَحَدَ الحُقولِ وَتَسَلَّلَ أَسْفَلَ كومَةِ قَشٍّ، وَعَلى الفَوْرِ، راحَ في سُباتٍ عَميقٍ.

نَهَضَ أوليڤر في اليَوْمِ التّالي وَقَدْ أَوْشَكَتْ عِظامُهُ أنْ تَتَيَبَّسَ مِنْ شِدَّةِ البَرْدِ، وكانَ يَتَضَوَّرُ جوعًا، فاضْطُرَّ إلى إنْفاقِ ما تَبَقَّى مَعَهُ مِنَ مالٍ في شِراءِ فَطيرَةٍ صَغيرةٍ.

اسْتَمَرَّ أوليڤر عَلى هذِهِ الحالِ مِنَ السَّيْرِ وَالتَّعَبِ، سِتَّةَ أَيّامٍ مُتَواصِلَةٍ وَلَمْ يَتَبَقَّ مَعَهُ مِنَ المالِ شَيءٌ يُذْكَرْ، فَصارَ يَتَسَوَّلُ مِنَ المَنازِلِ الَّتي تُصادِفُهُ كِسْرَةَ خُبْزٍ، أو شَرْبَةَ ماءٍ، حتَّى وَصَلَ في صَباحِ اليَوْمِ السّابِعِ إلى مَدينَةِ «بارنيت» الصَّغيرةِ.

كانَ الوَقْتُ مُبَكِّرًا، والمتاجِرُ لا تَزالُ مُغْلَقَةً، وَالشَّوارِعُ خالِيَةً مِنَ المارَّةِ، فَجَلَسَ على قارِعَةِ الطَّريقِ. وَشَيْئًا فَشَيْئًا، بَدَأَتِ النَّوافِذُ تُفْتَحُ، والسّتائِرُ تُرْفَعُ، وَبَدَأَ المارَّةُ يَتَجَوَّلونَ في الشارِعِ.

جلسَ أوليڤر للحظاتٍ، لاحظَ فيها أنّ ثمّةَ غُلامًا مَرَّ بِجوارِهِ دونَ أنْ يُعيرَهُ التِفاتًا، وَلكِنَّهُ عادَ إليْهِ مَرَّةً أخْرى وَأخذَ يَنْظُرُ إِلَيْهِ عَنْ كَثَبٍ، ثُمَّ وَجَّهَ إليهِ الحَديثَ:

«مَرْحَبًا، يا صَديقي! هَلْ تُعاني مِنْ ضائِقَةٍ؟»

كانَ الصَّبِيُّ في مِثْلِ عُمْرِهِ تَقْريبًا، ولكِنَّهُ قَذِرٌ قَبيحُ المَلامِحِ، قَصيرُ القامَةِ، يَضَعُ قُبَّعَةً كَبيرَةً على رَأسِهِ، تَكادُ تَنْزَلِقُ عِنْدَ أيَّةِ حَرَكَةٍ يأتي بِها، وَيَرْتَدي مِعْطَفًا طَويلًا، يَصِلُ إلى قَدَمَيْهِ، وَيَقِفُ واضِعًا يَدَيْهِ في جَيْبَيْهِ.



أعادَ الصَّبِيُّ سُؤالهُ إلى أوليڤر: «مَرْحَبًا، يا صَديقي! هَلْ تُعاني مِنْ ضائقةٍ؟»

أجابَ أوليڤر، وَالدّموع تَتَرَقْرَقُ في مُقْلتَيْهِ: «إِنَّني أَتَضَوَّرُ جوعًا، كَما أَنَّني مُنْهَكُ القُوَى. لقدْ سِرْتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ مُتَواصِلَةٍ.»

«لا عَلَيْكَ، يا صَديقي. سَتَأْكُلُ وَتَسْتَريحُ. تَعالَ مَعي.»

ساعَدَ الصَّبِيُّ أوليڤر عَلى النُّهوضِ، وَصَحِبَهُ إلى مَطْعَمٍ مُجاوِرٍ، واشْتَرى لهُ شَطيرَةَ خُبْزٍ، وَشَريحَةً مِنَ اللحْم، وَكوبًا مِنَ العَصيرِ. وَبَعْدَ أن أَجْهَزَ أوليڤر عَلى الطَّعامِ وَالشَّرابِ، سَأَله الصَّبِيُّ:

«هَلْ طَريقُكَ إلى لنْدَنْ؟»

«أَجَل.»

«هَلْ لدَيْكَ هُناكَ مَكانٌ يؤويكَ؟»

«لا.».

«هَلْ مَعَكَ نُقودٌ؟»

«لا.»

أطْلَقَ الصَّبِيُّ صَفيرًا يَنِمُّ عَنْ سَعادَةٍ، وَطَمْأَنَ أوليڤر إلى أَنَّهُ سَيُوَفِّرُ لهُ مَكانًا يَبيتُ فِيه ليْلتَه، حَيْثُ إِنَّهُ يَعْرِفُ رَجُلًا وَقورًا سَيُوَفِّرُ لهُ هذا المكانَ بِدونِ مُقابِلٍ. وكانَ مِنَ الصَّعْبِ على أوليڤر الَّذي أَضْنَتْهُ الرِّحْلَةُ أَنْ يَرْفُضَ مِثْلَ هذا العَرْضِ الكَريمِ، وَلا سِيَّما حِينَ عَلِمَ أَنَّ هذا الرَّجُلَ الوَقورَ سَيَكْفُلُ لهُ وَظيفَةً أَيضًا.

تَبادَلَ الصَّبِيَّانِ الحديثَ بِمَزيدٍ مِنَ المَوَدَّةِ، وَعَرَفَ أوليڤر أَنَّ صَديقَهُ يُدْعَى «جاك دوكينز»، وَلكِنَّ أَصْدقاءَهُ المُقَرَّبينَ يُنادونَهُ بِـ «المُحْتال البارِع».

طَلَبَ جاك إلى أوليڤر أَنْ يَنْتَظِرَ حُلولَ الظَّلامِ، ثُمَّ يَتَوَجَّها مَعًا إلى لنْدَن. وَبِالفِعْلِ كانَتِ السَّاعَةُ تَقْتَرِبُ مِنَ الحادِيَةَ عَشْرَةَ مَساءً حِينَ بَلَغا ضَواحِيَ لندن.

سارَ الاثْنانِ في أَكْثَرِ مَناطِقِ العاصِمَةِ قذارةً، إلى أَنْ بَلَغا أَخيرًا سَفْحَ تَلٍّ، ووَقَفا أمامَ بَيْتٍ قديمٍ مُتَهَدِّمٍ. وَأَحَسَّ أوليڤر أَنَّ مِنَ الأَفْضَلِ لهُ أَنْ يَلوذَ بِالفِرارِ، وَلكِنَّ جاك لَمْ يُمْهِلْهُ؛ إِذْ أَمْسَكَ بِذِراعِهِ، وَدَفَعَ بابَ المَنْزِلِ بِقَدَمِهِ، ثم دَفَعَ بأوليڤر إلى الدَّاخِلِ، وأَغْلَقَ البابَ.

أطْلَق جاك صَفيرًا طَويلًا، وَعَلى الفَوْرِ لاحَ ضَوْءُ شَمْعَةٍ على حائِطٍ في نِهايَةِ المَمَرِّ، وأطَلَّ وَجْهُ رَجُلٍ صاحَ بجاك: «مَنِ الَّذي مَعَكَ؟»

رَدَّ جاك: «صَديقٌ. هَلْ فاجِن مَوْجودٌ؟»

«أجل. إنَّهُ يُرَتِّبُ المَناديلَ.» ثُمَّ اخْتَفى وَجْهُ الرَّجُلِ.

صَعِدَ الصَّبِيَّانِ السُّلَّمَ المُتَهَدِّمَ، وأخَذَ أوليڤر يَتَحَسَّسُ طَريقَهُ وَسْطَ الظَّلامِ بِيَدٍ واحِدَةٍ، في حينَ أنَّ جاك كان يُطْبِقُ عَلى الأخْرَى بِإحْكامٍ، إلى أنْ بَلغَا الطَّابَقَ الثَّانِيَ، فَدَفَعَ جاك بابًا صَغيرًا ثُمَّ دَخَلا إلى حُجْرَةٍ.

كانَ لَوْنُ سَقْفِ الحُجْرَةِ وَالجُدْرانِ داكِنًا مِنْ تَأْثيرِ القَذارَةِ والزَّمَنِ، وفي الوَسَطِ توجَدُ مِنْضَدَةٌ خَشَبِيَّةٌ، عَلَيْها شَمْعَةٌ ومَوْقِدٌ، وَأمامَها وَقَفَ يَهُودِيٌّ عَجوزٌ، لا يَكادُ وَجْهُهُ الشِّرِّيرُ يَبينُ وَسْطَ شَعْرِهِ الأحْمَرِ الكَثيفِ. وكانَ يَرْتَدي عَباءَةً صُوفِيَّةً مُتَّسِخَةً، وَيُقَلِّبُ بَعْضَ الطَّعامِ عَلى المَوْقِدِ تارَةً، ثُمَّ يُحَوِّلُ بَصَرَهُ إلى عِدَّةِ مَنادِيلَ حَريرِيَّةٍ مَنْشورَةٍ على حَبْلٍ في الغُرْفَةِ تارَةً أخْرَى. وَعَلى الأرْضِ رُصَّتْ أكْياسٌ باليَةٌ، تُسْتَخْدَمُ كَأسِرَّةٍ، وَيَجْلِسُ حَوْلَ المائِدَةِ أرْبَعَةُ

أَوْ خَمْسَةُ غِلمانٍ في عُمْرِ جاك تَقْرِيبًا، يُدَخِّنونَ النّارَجيلَةَ وَيَحْتَسون الشَّرابَ. وَبَعْدَ عِدَّةِ كَلِماتٍ هَمَسَ بِها جاك لليَهودِيِّ، قالَ بِصَوْتٍ مَسْموعٍ: «أُقَدِّمُ لكَ صَديقي أوليڤر، يا فاجِن.»

انْحَنَى اليهودِيُّ احْتِرامًا لأوليڤر، وَشَدَّ على يَدِهِ، ثُمَّ صافَحَهُ سائِرُ الصِّبْيَةِ. وَقالَ فاجِن:

«سَعِدْنا بِمَعْرِفَتِكَ، يا أوليڤر. خُذِ الطَّعامَ مِنْ فَوْقِ المَوْقِدِ، يا جاك وَأَحْضِرْ كُرْسِيًّا لأوليڤر بِجِوارِ النّارِ. أَراكَ تَنْظُرُ إلى المنادِيلِ يا عَزيزي. لا بُدَّ أَنَّكَ تَتَعَجَّبُ من هذا الكَمِّ الكَبيرِ مِنْها، أَلَيْسَ كَذلك؟ في الواقِعِ أَنَّنا كُنَّا نَقومُ بِفَرْزِها اسْتِعْدادًا لِلغَسيلِ. هَذا كُلُّ ما في الأَمْرِ.»

وَضَجَّ الجميعُ بِالضَّحِكِ، وَجَلَسوا حَوْلَ المائِدَةِ يَتَنَاوَلونَ عَشاءَهُمْ في هذا المَكانِ الغَريبِ.

الفصل السابع

فاجِن اليَهودِيُّ وعِصابَتُهُ

اسْتَيْقَظَ أوليڤر في وَقْتٍ مُتَأَخِّرٍ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ التّالي. ولَمْ يَكُنْ بِالحُجْرَةِ سِوَى العَجوزِ فاجِن، وَكان يُعِدُّ لنَفْسِهِ فِنْجانًا مِنَ القَهْوَةِ.

لَمْ يَنْهَضْ أوليڤر مُباشَرَةً، بَلْ ظَلَّ مُسْتَلقِيًا في فِراشِهِ، وَبِعَيْنَيْنِ نِصْفِ مُغْمَضَتَيْنِ أَخَذَ يُراقِبُ اليهودِيَّ وَهُوَ يُعِدُّ قَهْوَتَهُ.

فَرَغَ العَجوزُ مِنْ إعْدادِ القَهْوَةِ، ووَقَفَ مُتَرَدِّدًا في وَسَطِ الغُرْفَةِ وَكَأَنَّهُ لا يَعْرِفُ ما الَّذي يُريدُ أنْ يَفْعَلَهُ. ثُمَّ تَوَجَّهَ إلى أوليڤر وناداه ليَرَى أَهُوَ نائِمٌ، أمْ مُسْتَيْقِظٌ. تَناوَمَ أوليڤر وَلَمْ يَرُدَّ، وَبَدا وَكَأَنَّهُ مُسْتَغْرِقٌ تَمامًا في النَّوْمِ؛ فاطْمَأَنَّ العَجوزُ، وَأَحْكَمَ إغْلاقَ بابِ الغُرْفَةِ، ثُمَّ جَذَبَ صُنْدوقًا صَغيرًا مِنْ فُتْحَةٍ سِرِّيَّةٍ في أَرْضِيَّةِ الحُجْرَةِ

وَوَضَعَهُ بِعِنايَةٍ وَحَذَرٍ شَديدَيْن على المِنْضَدَةِ.

لَمَعَتْ عَيْنا العَجوزِ وَهُوَ يَرْفَعُ غِطاءُ الصُّنْدوقِ، وَيَنْظُرُ في داخِلِهِ؛ ثُمَّ أَخْرَجَ ساعَةً ذَهَبِيَّةً مُرَصَّعَةً بِفُصوصٍ مِنَ الجَواهِرِ، وَأَقْراطًا، وَحُلِيًّا ثَمينَةً، وَأَخَذَ يَتَفَحَّصُها بِسعادَةٍ بالِغَةٍ. وَبَيْنَما هُوَ عَلى هذِهِ الحالِ، إذْ وَقَعَتْ عَيْناهُ عَلى وَجْهِ أوليڤر، فَتَبَيَّنَ أَنَّ الصَّبِيَّ كانَ يُراقِبُهُ طَوالَ الوَقْتِ.

أَغْلَقَ اليَهودِيُّ بابَ الصُّنْدوقِ بِعُنْفٍ، وَسَحَبَ سِكّينًا مِنْ أمامِهِ وانْدَفَعَ نَحْوَ أوليڤر، وخاطَبَهُ بِغَضَبٍ عاصِفٍ، وَهُوَ يُلَوِّحُ بالسِّكّينِ في وَجْهِهِ: «هَلْ كُنْتَ تُراقِبُني أَيُّها الغُلامُ؟ ما الَّذي رَأَيْتَهُ؟ تَكَلَّمْ! لماذا صَحَوْتَ؟ انْطِقْ فَوْرًا وَإِلّا...»

رَدَّ أوليڤر بفَزَعٍ: «مَعْذِرَةً، يا سَيِّدي! لَمْ أَقْصِدْ إِزْعاجَكَ. لَقَدْ أَخَذْتُ كِفايَتي مِنَ النَّوْمِ، وَصَحَوْتُ مُنْذُ لَحْظَةٍ.»

«أَلَمْ تَكُنْ مُسْتَيْقِظًا قَبْلَ ذلكَ؟»

أُقْسِمُ لَكَ، يا سَيِّدي، أنني اسْتَيْقَظْتُ لِتَوِّي.»

تَغَيَّرَتْ فَجْأَةً نَبْرَةُ اليَهودِيِّ، واسْتَعادَ رَباطَةَ جَأْشِهِ، وَوَضَعَ السِّكّينَ على المِنْضَدَةِ، وَقالَ لَهُ: «لا عَلَيْكَ، يا أوليڤر. لَقَدْ



كُنْتُ أَخْتَبِرُ شَجاعَتَكَ، وها أَنْتَ ذا تُثْبِتُ نَجاحَكَ في الاخْتِبارِ. إِنَّكَ صَبِيٌّ شُجاعٌ، يا أوليڤر.»

تَظاهَرَ اليَهودِيُّ بِعَدَمِ الاكْتِراثِ، في الوَقْتِ الَّذي تَحَوَّلَتْ عَيْناهُ إِلى الصُّنْدوقِ في قَلَقٍ بالِغٍ، ثم سَأَلَ أوليڤر:

«هَلْ رَأَيْتَ هَذِهِ الحُلِيَّ الجَميلةَ؟»

رَدَّ أوليڤر بِبَراءَةٍ: «أَجَل رَأَيْتُها.»

شَحَبَ وَجْهُ العَجوزِ، وَقالَ: «هذا كُلُّ ما أَمْلِكُ، يا أوليڤر. كُلُّ ما تَبَقَّى لي مِنَ الدُّنْيا. إِنَّهُمْ يَصِفونَني بالبُخْلِ، وَلذلكَ فأنا أَحْتَفِظُ بِمُمْتَلكاتي هُنا. هذا كُلُّ ما في الأَمْرِ.»

أَيْقَنَ أوليڤر أَنَّ اليهودِيَّ جِدُّ بَخيلٍ؛ إِذْ كَيْفَ يَعيشُ في هذا المكانِ القَذِرِ، وَلَدَيْهِ كُلُّ هذِهِ الحُليِّ وَالجَواهِرِ! جالَتْ هذِهِ الأَفْكارُ بِرَأْسِ أوليڤر لِثَوانٍ مَعْدوداتٍ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ بَعْدَها اليَهودِيَّ في النُّهوضِ، فَأَذِنَ لهُ وأَمَرَهُ أَنْ يُحْضِرَ إِبْريقَ الماءِ المَوْضوعَ خَلفَ البابِ.

نَهَضَ أوليڤر، وَسارَ نَحْوَ البابِ، وَانْحَنى لِيَرْفَعَ الإِبْريقَ، وَعِنْدما

اسْتَدارَ، كانَ الصُّنْدوقُ قَدِ اخْتَفى.

بَعْدَ أنْ فَرِغَ أوليڤر مِنَ الاغْتِسالِ، أقْبَلَ جاكْ وَبِصُحْبَتِهِ صَديقٌ آخَرُ يُدْعَى «تشارلي بيتس»، وَجلسَ أرْبَعَتُهُمْ يَتناوَلونَ إفْطارَهُمْ.

سَأَلَ اليَهودِيُّ جاكْ وَتشارلي عَنْ حَصيلةِ عَمَلِهِما اليَوْمِيِّ، فَأَخْرَجَ جاكْ حافِظَتَيْ نُقودٍ، وأَخْرَجَ تشارلي أَرْبَعَةَ مَناديلَ.

فَرِغَ الجَميعُ مِنْ تَناوُلِ الإفْطارِ، وَبَدَأَ العَجوزُ وَالصِّبْيانِ يَلعَبونَ لُعْبَةً بَدَتْ غريبَةً لأوليڤر، وَإنْ كانَتْ مُسَلِّيَةً: وَضَعَ العَجوزُ عُلبَةَ نَشُوقٍ في جَيْب سِرْوالِهِ، وَمِحْفَظَةً في الجَيْبِ الآخَرِ، وَساعَةً في جَيْبِ مِعْطَفِهِ، ثُمَّ أَحْكَمَ أَزْرارَ المِعْطَفِ، وَبَدَأَ يَمْشي في الحُجْرَةِ، وَهُوَ يَتَّكِئ على عَصاهُ، وَكَأَنَّهُ يَسيرُ في أَحَدِ الشَّوارِعِ، فَيَتَوَقَّفُ تارَةً أَمامَ المَوقِدِ، وَتارَةً أُخرى عِنْدَ البابِ، وَكَأَنَّهُ يُشاهِدُ بَعْضَ المَتاجِرِ، وَفي كُلِّ مَرَّةٍ كانَ يَتَلَفَّتُ حَوْلَهُ، وَيَتَحَسَّسُ جُيوبَه، وَكَأَنَّهُ يَتَأَكَّدُ أَنَّ شَيْئًا مِنْها لَمْ يُفْقَدْ.

كانَ اليَهودِيُّ يَقومُ بِهذِهِ الحَرَكاتِ بِطَريقَةٍ تَمْثيلِيَّةٍ مُضْحِكَةٍ، جَعَلَتْ أوليڤر يَسْتَلقي عَلى قَفاهُ مِنْ شِدَّةِ الضَّحِكِ. وَفي هذِهِ الأثْناءِ كانَ الصَبِيَّانِ يَتْبَعانِهِ عَنْ بُعْدٍ وحَذَرٍ، وَفي كُلِّ مَرَّةٍ يَلتَفِتُ

فيها العَجوزُ يَتَوارَيانِ عَنِ الأَنْظارِ، إلى أن اقْتَرَبَ مِنْه جاك، ووطِئَ قَدَمَهُ، كَما لوْ كانَ الأمْرُ مُصادَفَةً، ثُمَّ اصْطَدَمَ بِهِ تشارلي. وفي لحْظَةٍ كَلَمْحِ البَصَرِ اسْتطاعَ الاثْنانِ أنْ يَسْلباهُ حافِظَةَ نقودِهِ وَالمِنْديلَ، وَعُلبَةَ النَّشوقِ، وَجِرابَ النَّظارَةِ. وإذا أحَسَّ العجوزُ بِيَدِ أحَدِهِما صَرَخَ، وتَبْدَأُ اللعْبَةُ مِنْ جَديدٍ.

كَرَّرَ العَجوزُ وَالصَّبِيّانُ اللُّعْبَةَ عِدَّةَ مَرّاتٍ، ثُمَّ حَضَرَتْ فَتاتانِ إحْداهُما تُدْعَى «بيت»، وَالأخْرَى «نانسي»، وَرَغْمَ هَيْئَتِهِما المزْرِيَةِ؛ فَقَدْ راقتا لأوليفر لبَساطَتِهِما في التَّعامُلِ وَالحَديثِ.

قَضَى الجَميعُ وَقْتًا لطيفًا بَيْنَ الضَّحِكِ وَاللَّعِبِ، ثُمَّ غادَرَتِ الفَتاتانِ وَالصَّبِيّانِ الحُجْرَةَ، بَعْدَ أنْ أعْطاهُم اليَهودِيُّ بَعْضَ المالِ لِحِسابِهِم. وَبَعْدَ انْصرافِهِمْ قالَ لأوليفر:

«إنَّنا نَحْيا هُنا حياةً سَعيدَةً، يا أوليفر، ألَيْسَ كذَلكَ؟ عَلَيْكَ أنْ تَتَّخِذَ مِنْ هَذَيْنِ الشّابَّيْنِ قُدْوَةً لكَ. اسْتَشِرْهُما في كُلِّ أمورِكَ، وَخُذِ النَّصيحَةَ مِنْهُما وَلا سِيَّما جاك؛ فَسَيكونُ لهُ شَأنٌ عَظيمٌ، وَأنْتَ أيْضًا سَيكونُ لكَ شَأنٌ عَظيمٌ إذا اقْتَفَيْتَ آثارَهُ. وَالآنَ هَلْ تَرى طَرَفَ المنْديلِ الَّذي يَظْهَرُ مِنْ جَيْبي؟ هَلْ تَسْتَطيعُ أنْ تلتَقِطَهُ دونَ أنْ أشْعُرَ بِيَدِكَ؟»

مَدَّ أوليڤر يَدَهُ بِخِفَّةٍ، وَسَحَبَ المِنْديلَ، ثُمَّ لَوَّحَ بِهِ للعَجوزِ الَّذي تَهَلَّلَ فَرَحًا، وَأَكَّدَ لَهُ أَنَّهُ سَيُصْبِحُ رَجُلًا عَظيمًا إذا أَخَذَ بِنَصائِحِهِ وَعمِلَ بها، ثُمَّ أَعْطاهُ بِضْعَةَ قُروشٍ مُكافَأَةً لَهُ على خِفَّةِ يَدِهِ.

تَعَجَّبَ أوليڤر كَيْفَ يُساعِدُهُ خَطْفُ المنادِيلِ عَلى أنْ يُصْبِحَ رَجُلًا عَظيمًا، وَلكِنْ لِإيمانِهِ بِأَنَّ العجوزَ يَعي الأمورَ خَيْرًا مِنْهُ، أَذْعَنَ لِأوامِرِهِ، وَعَكَفَ على تَعَلُّمِ دُروسِهِ الجَديدَةِ.

الفصل الثامن

القَبْضُ على أوليڤر

ظَلَّ أوليڤر مُلازِمًا غُرْفَةَ اليهودِيِّ بِضْعَةَ أيّام، تارَةً يُساعِدُهُ في بَعْضِ أعْمالِهِ، وَتارَةً أخْرى يُشارِكُ في لعْبَةِ نَشْلِ الأشْياءِ مِنْ جَيْبِ العَجوزِ، إلى أنْ سَئِمَ البقاءَ في المَنْزِلِ، وَشَعَرَ بِحاجَتِه للخُروجِ إلى الشَّارِعِ، وَتَنَفُّسِ هواءٍ نَقِيٍّ، فَتوسَّلَ إلى اليَهودِيِّ أن يَدَعَهُ يَخْرُجَ لمُشارَكَةِ صاحِبَيْهِ العَمَلَ.

وبَعْدَ مُحاولاتٍ مُضْنِيَةٍ اسْتَجابَ العَجوزُ لطَلَبِ أوليڤر، وَسَمَحَ لهُ بالخُروجِ. وَعلى الفَوْرِ، خَرَجَ الصِّبْيَةُ الثَّلاثَةُ، وساروا بِخُطًى وَئيدَةٍ حَتَّى ظَنَّ أوليڤر أنّهما غَيرُ عازِمَيْنِ على العَمَلِ. وَفَجْأَةً تَوَقَّفَ جاك، وَأشارَ ناحِيَةَ رَجُلٍ يَقِفُ داخِلَ إحْدَى المكْتَباتِ.

سارَ الصَّبِيَّانِ مُتَلَصِّصَيْنِ، وَتَبِعَهُما أوليڤر دونَ أنْ يَدْرِيَ ما

دَوْرُهُ. هَلْ يَتَقَدَّمُ وَيَتْبَعُهُمَا أَمْ يَظَلُّ في مَكانِهِ؟ ثُمَّ وَقَفَ يُحَدِّقُ أمامَهُ ذاهِلًا.

كانَ الرَّجُلُ يَبْدو عَلَيه عَلاماتُ الوَقارِ، على رَأسِه قُبَّعَةٌ، وَيَضَعُ على عَيْنَيْهِ نَظَّارَةً ذَهَبِيَّةً. تَناوَلَ الرَّجُلُ كِتابًا مِنْ فَوْقِ أَحَدِ الرُّفوفِ، ثُمَّ انْهَمَكَ في قِراءَتِهِ دُونَ أَنْ يَفْطِنَ لِما حَوْلَهُ.

اقْتَرَبَ جاكْ بِحَذَرٍ مِنَ الرَّجُلِ، وَمَدَّ يَدَهُ بِخِفَّةٍ إلى جَيْبِهِ، واسْتَلَّ المِنْديلَ، ثُمَّ سَلَّمَهُ لشارلي، وَانْطَلَقَ الصَّبِيَّان بأَقْصَى ما أوتِيا من سُرْعَةٍ.

كانَ أوليڤر واقِفًا يُراقِبُ المَشْهَدَ في ذُهولٍ، وَفَهِمَ في لَحْظَةٍ واحِدَةٍ سِرَّ اللُّعْبَةِ الغَريبَةِ الَّتي يُعَلِّمُها لهُ العجوزُ؛ فَشَعَرَ بِرُعْبٍ شَديدٍ يَجْتاحُهُ، ثُمَّ أَطْلَقَ ساقَيْهِ للرِّيحِ.

في هذِهِ اللحْظَةِ وَضَعَ الرَّجُلُ يَدَهُ في جَيْبِهِ، فَلَمْ يَجِدْ مِنديلَهُ، فالتَفَتَ حَوْلَهُ لِيَجِدَ أوليڤر مُنْطَلِقًا كالسَّهْمِ، فَصَرَخَ بِصَوْتٍ عالٍ: «أَمْسِكوا اللِّصَّ!» وانْطَلَقَ خَلفَهُ، وَفي يَدِهِ الكِتابُ.

سَمِعَ جاكْ وتشارلي صُراخَ الرَّجُلِ، وَشاهَدا أوليڤر وَهُوَ يَعْدو، فَعَرَفا عَلى الفَوْرِ كَيْفَ سارَتِ الأمورُ، فَتَوَقَّفا عَنِ العَدْوِ، وأَخَذا

يَصيحان: «أمْسِكوا اللِّصَّ! أمْسِكوا اللِّصَّ!»

سَرَتِ الصَّيْحَةُ بَيْنَ المارَّةِ سَرَيانَ النّارِ في الهَشيمِ، وَبَدَأ الجَميعُ في العَدْوِ خَلفَ أوليڤر مُحاوِلينَ الإمْساكَ بِهِ. وأخيرًا، لحِقَ الجَمْعُ الثّائِرُ بِالصَّبِيِّ الضَّعيفِ، الَّذي ارْتَمَى عَلى الرَّصيفِ مُتَقَطِّعَ الأنْفاسِ، وَحَبّاتُ العَرَقِ تَتَساقَطُ من جَبينِهِ الشّاحِبِ، فَبادَرَهُ أحَدُهُمْ بِلَكْمَةٍ قَوِيَّةٍ جَعَلَت الدِّماءَ تَتَفَجَّرُ مِنْ فَمِهِ.

وَوَصَلَ الرَّجُلُ صاحِبُ المِنْديلِ، وَخَلفَهُ أحَدُ رِجالِ الشُّرْطَةِ.

سَألَ الشُّرْطِيُّ الرَّجُلَ: «هَلْ هذا هُو اللصُّ؟»

رَدَّ الرَّجُلُ: «أجَل. مِسْكينٌ! لقَدْ جُرِحَ.»

ضَمَّ أوليڤر يَدَيْه، وَقالَ للشُّرْطِيِّ مُتَوَسِّلًا: «لمْ أسْرِقْ شَيْئًا. إنَّهُما الصَّبِيّانِ. صَدِّقْني. لا بُدَّ أنَّهُما لمْ يَبْتَعِدا كثيرًا.»

لم تُجْدِ تَوَسُّلاتُ أوليڤر في الشُّرْطِيِّ، وَظَنَّ أنَّهُ يَدَّعي هذا ليَنْجُوَ بِنَفْسِهِ مِنْ هذا المأزِقِ. وَبِفَظاظَةٍ شديدَةٍ جَذَبَ الصَّبِيَّ مِنْ مِعْطَفِهِ، وسارَ بِهِ إلى قِسْمِ الشُّرْطَةِ وَبِجانِبِهِ صَاحِبُ المِنْديلِ.

الفصل التاسع

إطْلاقُ سَراحِ أوليڤر

اقْتادَ الشُّرْطِيُّ أوليڤر ومَعَهُ الرَّجُلَ إلى قِسْمِ الشُّرْطَةِ، حَيْثُ القاضي، لِيَفصِلَ في أمْرِهِما.

كانَ القاضي حادَّ المِزاجِ، سَيِّئَ الطِّباعِ، اعْتادَ مُخاطَبَةَ النَّاسِ بِازْدِراءٍ وتَعالٍ وتَكَبُّرٍ.

قَدَّمَ صاحِبُ المِنديلِ بِطاقَةً بها اسْمُهُ وعُنْوانُهُ عَرَفَ مِنْها القاضي أنَّ الرَّجُلَ يَدْعى «براوِنْلو» وَدونَ أنْ يَتَبَيَّنَ الأمْرَ، وَجَّهَ القاضي إلَيْهِ سَيْلًا غَيْرَ لائِقٍ مِنَ الألْفاظِ؛ ظَنًّا مِنْهُ أنَّهُ مُتَّهَمٌ في قَضِيَّةٍ ما. وَلكِنْ بَعْدَ أنِ اتَّضَحَ الأمْرُ، اسْتَدعى الشُّرْطِيَّ لِيَقُصَّ عَلَيْهِ حَقيقَةَ ما حَدَثَ، ثُمَّ طَلَبَ إلى السَّيِّدِ براوِنْلو أنْ يَقُصَّ بِدَوْرِهِ ما حَدَثَ.

ذَكَرَ صاحِبُ المِنديلِ في رِوايَتِهِ أنَّهُ غَيْرُ واثِقٍ بأنَّ الصَّبِيَّ هُوَ

اللصُّ، وَلكِنَّهُ انطَلَقَ في أَثَرِهِ لأَنَّهُ رَآهُ يَعْدو بِفَزَعٍ، ثُمَّ تَوَسَّلَ إلى القاضي أَنْ يَرْأَفَ بِالصَّبِيِّ إِذْ إِنَّهُ يَبْدو ضَعيفًا واهِنًا.

سَخِرَ القاضي مِنْ تَوَسُّلاتِ السَّيِّدِ براوِنْلو، وَاسْتَدارَ إلى أوليڤر، وَسَأَلَهُ بِفَظاظَةٍ: «اقْتَرِبْ أَيُّها الوَغْدُ الصَّغيرُ! ما اسْمُكَ؟»

حاوَلَ أوليڤر الرَّدَّ عَلى القاضي، وَلكِنَّ الكَلامَ تَوَقَّفَ في حَلقِهِ، وَبَدَأَ يَشْعُرُ بِأَنَّ المَكانَ يَدورُ بِهِ.

أَحَسَّ الشُّرْطِيُّ، وَكانَ رَجُلًا طَيِّبَ القَلبِ، بِما يُعانيهِ أوليڤر من إِعْياءٍ وَخَوْفٍ شَديدَيْنِ، فأجابَ عَنْ أَسْئِلَةِ القاضِي بَدَلًا مِنْهُ. وَرغْمَ ذلكَ فقد أَصْدَرَ القاضي حُكْمًا بِالحَبْسِ مَعَ الأَشْغالِ الشَّاقَّةِ مُدَّةَ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ على أوليڤر. وَفي تِلْكَ اللحْظَةِ انْدَفَعَ رَجُلٌ إلى مِنَصَّةِ القاضي وَهُوَ يَصْرُخُ:

«انْتَظِروا! انْتَظِروا! لا تَسوقوا الصَّبِيَّ إلى السِّجْنِ. إِنَّه بَريءٌ!»

دَخَلَ الرَّجُلُ القاعَةَ وَبَدَأَ يَتَكَلَّمُ بِأَنْفاسٍ مُتَقَطِّعَةٍ، فَأَوْضَحَ أَنَّهُ صاحِبُ مَكْتَبَةٍ لبَيعِ الكُتُبِ، وَأَنَّهُ شاهَدَ الأَوْلادَ الثَّلاثَةَ، وأن أوليڤر كانَ بَعيدًا عن مَكانِ الحادِثِ، ولمْ يَشْتَرِكْ في السَّرِقَةِ.

اسْتَمَعَ القاضي بإمْعانٍ إلى قِصَّةِ الرَّجُلِ، وَأمَرَ بِإخْلاءِ سَبيلِ أوليڤر في الحال.

خَرَجَ السَّيِّد براوِنْلو وَبِصُحْبَتِهِ أوليڤر، واسْتَدْعى عَرَبَةً ثُمَّ رَكِبَها هُوَ وَالصَّبِيُّ إلى بَيْتِهِ.

الفصل العاشر

أوليفر في مَنْزِلِ السَّيِّد براوِنْلو

بَلغَتِ العَرَبَةُ الَّتي تُقِلُّ أوليفر وَالسَّيِّدَ براوِنْلو المَنْزِلَ، وَعَلى الفَوْرِ أُعِدَّ للصَّبِيِّ فراشٌ مُريحٌ، وَأحيطَ بِكُلِّ رِعايَةٍ وَحَنانٍ.

ظَلَّ أوليفر عِدَّةَ أَيَّامٍ غائِبًا عَنْ وَعْيِهِ؛ إذ إنَّهُ كانَ يُعاني مِنْ وَطْأةِ حُمَّى شَديدَةٍ. ثُمَّ أفاقَ بَعْدَ مُدَّةٍ وَرَفَعَ رَأسَهَ بِضَعْفٍ شَديدٍ، وَأسْنَدَهُ عَلى ذِراعِهِ المُرْتَعِشَةِ، وَنَظَرَ حَوْلَهُ في ذُهولٍ، وَأخَذَ يُرَدِّدُ:

«أيْنَ أنا؟ أيْنَ أنا؟ لَيْسَ هَذا مَكاني الَّذي كُنْتُ أنامُ فيه...»

رَبَّتَتِ السَّيِّدَةُ «بِدْوين» على رَأسِهِ في حَنانٍ، وَهِيَ امْرَأةٌ طَيِّبَةٌ عَطوفٌ كانَتْ تَجْلِسُ بِجِوارِ فِراشِهِ، وَتَسْهَرُ على رِعايَتِهِ. وَطَلَبَتْ إلَيْهِ أنْ يُهَدِّئ من رَوْعِهِ وإلّا عاوَدَتْهُ الحُمّى مَرَّةً ثانِيَةً.

امْتَثَلَ أوليڤر لطَلَبِ السَّيِّدَةِ بدوين ليُرْضِيَها أولًا، وَلأنَّهُ ثانِيًا كانَ لا يَزالُ ضَعيفًا وَبِحاجَةٍ للرَّاحَةِ.

وَعَلى الفَوْرِ رَاحَ في نَوْمٍ عَميقٍ، وَلمْ يَسْتَيْقِظْ مِنْهُ إلّا في المساءِ ليَجِدَ الطَّبيبَ يَتَحَسَّسُ نَبْضَهُ مُؤَكِّدًا أنَّهُ قَدِ اجْتازَ مَرْحَلةَ الخَطَرِ، وأنَّهُ يَتَماثَلُ للشِّفاءِ.

وَبَعْدَ ثَلاثَةِ أيّامٍ، اسْتَطاعَ أوليڤر أنْ يَنْهَضَ مِنَ الفِراشِ، وَيَجْلِسَ عَلى مَقْعَدٍ مُريحٍ. وَكانَ السَّيِّد براوِنْلو يَأتي ليَطْمَئِنَّ عَليْه، وعَلى راحَتِهِ في المَنْزِلِ. وَلمّا شُفِيَ أوليڤر تَمامًا، وَأصْبَحَ في مَقْدورِهِ السَّيْرُ، أمَرَ السَّيِّدُ براوِنْلو بِشْراءِ ثِيابٍ جَديدةٍ، وَقُبَّعَةٍ، وَحِذاءٍ لأوليڤر.

وَهكذا مَضَتِ الأيّامُ سَعيدَةً هانِئَةً في مَنْزِلِ السَّيِّد براوِنْلو والسَّيِّدَةِ بدوين العطوفَيْن.

وَفي أحَدِ الأيّامِ، أرْسَلَ السَّيِّدُ براوِنْلو في طَلَبِ أوليڤر في حُجْرَةِ مَكْتَبِهِ. وَتجاذَبَ صاحِبُ المَنْزِلِ أطْرافَ الحديثِ مَعَ أوليڤر، ثُمَّ تَغَيَّرَتْ نَبْرَتُهُ فَجْأةً، وَتَكَلَّمَ بِصورَةٍ أكْثَرَ جِدِّيَّةً، وأبْلَغَهُ بِأنَّهُ سَيُحَدِّثُهُ في أمْرٍ هامٍّ، وَعَلَيْهِ أنْ يُصْغِيَ تَمامًا.

ظَنَّ أوليڤر أوَّلَ الأمْرِ أنَّ السَّيِّدَ براوِنْلو سَيَطْرُدُهُ مِنَ المَنْزِلِ؛ فَتوسَّلَ إلَيْهِ ألا يَفْعَلَ، وأنْ يَدَعَهُ يَعيشُ في البَيْتِ خادِمًا.

أثارَتْ تَوَسُّلاتُ أوليڤر السَّيِّد براوِنْلو فَطَمْأَنَهُ مُبْلِغًا إيّاهُ بأنَّ هذا لنْ يَحْدُثَ ما دامَ يُحْسِنُ التَّعامُلَ، وأنه يُريدُ مِنْهُ شَيْئًا واحِدًا فَقَطْ. يُريدُ أنْ يَعْرِفَ مِنْهُ قِصَّتَهُ كامِلةً؛ مِنْ أيْنَ أتى، وَمَنِ الَّذي تَكَفَّلَ بِرِعايَتِهِ في طُفولَتِهِ، وَكَيْفَ تَعَرَّفَ إلى رفيقَيْهِ، وَأنَّه إذا ما صَدَقَهُ القَوْلَ، فَسَيَبْقى في بَيْتِهِ هانِئًا ما دامَ السَّيِّدُ براوِنْلو عَلى قَيْدِ الحَياةِ.

بَدَأَ أوليڤر في حكاية قِصَّتِهِ، ولكن في تِلْكَ اللَحْظَةِ حَضَرَ السَّيِّدُ جريمْويج صَديقُ السَّيِّدِ براوِنْلو وَهُوَ رَجُلٌ بَدينٌ، ذو قَدَمٍ عَرْجاءَ، وَيَسْتَنِدُ إلى عَصًا غَليظَةٍ، وَلَهُ طريقَةٌ غَريبَةٌ في الحَديثِ.

تَفَحَّصَ الرَّجُلُ أوليڤر بِعَيْنَيْنِ ثاقِبَتَيْنِ، وَبدا أنَّ حَديثًا قَدْ دارَ بِشَأْنِهِ مَعَ السَّيِّد براوِنْلو. سَأَلَ السَّيِّد جريمْويج صَديقَهُ عَنْ ميعادِ اسْتِماعِهِ إلى قِصَّةِ أوليڤر تويست، فَأجابَهُ بِأَنَّهُ سَيَسْتَمِعُ إلَيْهِ في وَقْتٍ لاحِقٍ. ثُمَّ طَلَبَ مِنْ أوليڤر أنْ يَحْضُرَ إليه في العاشِرَةِ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ التّالي.

بَدا أوليڤر مُتَرَدِّدًا، وشَعَرَ بِالارْتِباكِ والاضْطِرابِ تَحتَ وَطْأَةِ

نَظَراتِ السَّيِّد جريمْوِيج الثَّاقِبَةِ.

هَمَسَ السَّيِّد جريمْوِيج في أُذُنِ صاحِبِ البَيْتِ مُؤَكِّدًا لهُ أنَّ أوليڤر لنْ يَحْضُرَ ليَقُصَّ حِكايَتَهُ، وَأنَّ الصَّبِيَّ يُخادِعُهُ، وَلمَّا لَمحَ الغَضَبَ مُرْتَسِمًا على وَجْهِ صَديقِهِ، اكْتَفَى بابْتسامَةٍ باهِتَةٍ، وأضافَ:«سَوْفَ نَرَى.»

وتَشاءُ الأقْدارُ أنْ تُحْضِرَ السَّيِّدَةُ بِدْوين في ذلكَ الوَقْتِ طَرْدًا مِنَ الكُتُبِ كانَ السَّيِّد براوِنْلو قَدْ أرْسَلَ في طَلَبِها مِنَ المَكْتَبَةِ نَفْسِها الَّتي وَقَعَتْ فيها السَّرِقَةُ. وَلمّا تَفَحَّصَ السَّيِّدُ براوِنْلو الطَّرْدَ وَجَدَ أنَّ ثَمَّةَ بَعْضَ الكُتُبِ يَجِبُ إرْجاعُها، فاسْتَدْعَى السَّيِّدَةَ بِدْوين لتُسَلِّمَها إلى صَبِيِّ المَكْتَبَةِ، ولكِنَّهُ كانَ قَدْ رَحَلَ.

قالَ السَّيِّدُ جريمْويج وَعَلى وَجْهِهِ ابْتسامَةٌ ساخِرَةٌ: «لمَ لا تُرْسِلُ أوليڤر بِالكُتُبِ؟»

رَدَّ عَلَيْهِ السَّيِّدُ براوِنْلو بِتَحدٍّ: «نَعَمْ، سَأُرْسِله بِها.» ثُمَّ قالَ لأوليڤر: «عَلَيْكَ أن تَرْجِعَ بِالكُتُبِ إلى المَكْتَبَةِ وهاكَ وَرَقَةً بِخَمْسَةِ جُنَيْهاتٍ. أعْطِ الرَّجُلَ ثَمَنَ الكُتُبِ. وَأحْضِرْ باقِيَ النُّقودِ، وَعُدْ سَريعًا.»

سَعِدَ أوليڤر بهذا لأَنَّهُ سَيؤَدِّي عَمَلًا نافِعًا لسَيِّدِهِ العَطوفِ، وَأَكَّدَ لهُ أَنَّهُ سَيعودُ خِلالَ عَشْرِ دَقائِقَ على الأَكْثَرِ. وَانْطَلَقَ في طَرِيقِهِ بَعْدَ أَنْ وَدَّعَتْهُ السَّيِّدَةُ بدوين وهي تُزَوِّدُهُ بالتَّعْليماتِ وَالنَّصائِحِ.

وَضَعَ السَّيِّدُ براوِنْلو ساعَتَهُ عَلى المِنْضَدَةِ، مُؤَكِّدًا لِصَديقِهِ أَنَّ أوليڤر سَيعودُ بَعْدَ عِشْرينَ دقيقةً عَلى أَكْثَرِ تَقْديرٍ.

وأَكَّدَ السَّيِّدُ جريمْويج بأَنَّه لنْ يَعودَ. وَأَضافَ: «ثِيابٌ جَديدَةٌ، وَطَرْدٌ مِنَ الكُتُبِ الغالِيَةِ تَحْتَ إِبْطِهِ، وَخَمْسَةُ جُنَيْهاتٍ في جَيْبِهِ... بالقَطْعِ لنْ يَعودَ، بل سَيَذْهَبُ إلى أَصْدقائِهِ اللصوصِ، وَيَسْخَرُ مِنْكَ!»

جَلَسَ السَّيِّد براوِنْلو وَصَديقُه حَوْلَ المِنْضَدَةِ يُحَدِّقانِ في صَمْتٍ إلى عَقْرَبَي السَّاعَةِ المَوْضوعَةِ أمامَهما.

الفصل الحادي عَشَرَ

أوليڤر في قَبْضَةِ اليَهودِيّ

عادَ الصَّبِيَّان إلى اليَهودِيِّ بِدونِ أوليڤر، فَجُنَّ جُنونُهُ، وَأَخَذَ يَكيلُ لهُما اللَّكَماتِ والشَّتائِمَ حتَّى جاءَ أَحَدُ رِجالِهِ، وَيُدْعى «بيل سايكس» وَمَعَهُ كَلبُهُ الشَّرِسُ.

كانَ بيل سايكس رَجُلًا قَوِيًّا، مَفْتولَ العَضَلاتِ، في مُنْتَصَفِ العَقْدِ الرّابع مِنْ عُمْرِهِ، لا يَهابُ اليَهودِيَّ ولا غَيْرَهُ، بَلْ على العَكْسِ يَكادُ يَكونُ اليَهودِيُّ هُو الَّذي يَخْشَى بأسَهُ.

سَأَلَ سايكس عَنْ سَبَبِ ثَوْرَةِ العَجوزِ، فأبْلَغوهُ بِالأمْرِ؛ فَأشارَ بأَنْ يَذْهَبَ أَحَدُهُمْ إلى قِسْمِ الشُّرْطَةِ وَيَتَحَسَّسَ الأَخْبارَ. وَلكِنْ لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ مَنْ يَجْرُؤ عَلى الذَّهابِ بِقَدَمَيْهِ إلى الشُّرْطَةِ. وَفي تِلكَ اللَّحْظَةِ، حَضَرَتْ نانسي الفَتاةُ الَّتي راقَتْ أوليڤر مِنْ قَبْلُ،

وَبِكَلِماتٍ قاسِيَةٍ مِنْ سايكس، وَبَعْضِ النُّقودِ مِنَ اليَهودِيِّ، ذَهَبَتْ لِتَتَقَصّى أَخْبارَ أوليڤر.

قَصَدَتْ نانسي قِسْمَ الشُّرْطَةِ، وَبادَرَتْ بِالصُّراخِ وَالنَّحيبِ وهِيَ تَقولُ: «أخي! أخي! الصَّغيرَ! ما الَّذي حَدَثَ لهُ؟ أَيْنَ هُوَ؟»

أَقْبَلَ أَحَدُ الضُّبّاطِ على صُراخِها، وَأَخْبَرَها بِما حَدَثَ، فَعَلِمَتْ منه أَنَّ أوليڤر قَدْ ذَهَبَ في حالَةِ إعْياءٍ تامٍّ، مَعَ الرَّجُلِ الَّذي كانَ قَدْ أدانَهُ مِنْ قَبْلُ، وذلكَ بَعْد أن ثَبَتَتْ بَراءَتُهُ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ لِصًّا آخَرَ هو الَّذي سَرَقَ المِنْديلَ.

غادَرَتِ الفَتاةُ قِسْمَ الشُّرْطَةِ، وانْطَلَقَتْ بِأَقْصى سُرْعَتِها إلى بَيْتِ اليَهودِيِّ، وَأَخْبَرَتْهُمْ بِما كانَ مِنْ أَمْرِ الصَّبِيِّ، وَبِمكانِهِ الجديدِ.

أَنْصَتَ بيل سايكس لِكَلامِ الفَتاةِ، فَصَحِبَ كَلبَهُ الأَبْيَضَ، وَخَرَجَ مُسْرِعًا.

أَمَرَ اليهودِيُّ جاك وَالفتاتَيْنِ بِأَنْ يَبْذُلوا أَقْصى ما في وُسْعِهِمْ لمعرفةِ أَخْبارِ الصَّبِيِّ، ثُمَّ أَعْطاهُم بَعْضَ النُّقودِ، وأَبْلَغَهُمْ بِأَنَّهُ سَيُغْلِقُ المَنْزِلَ لبَعْضِ الوَقْتِ خَشْيَةَ أَنْ يَكونَ أوليڤر قَدْ وَشى بِهِ عِنْدَ الشُّرْطَةِ. وَغادَرَ المَنْزِلَ بَعْدَ أَنْ أَخَذَ مَعَهُ صُنْدوقَهُ الثَّمينَ.

كانَ أوليڤر في طَريقِهِ إلى مَكْتبَةِ بَيْعِ الكُتُبِ، وهُو يُفكِّرُ في حالِهِ وكَمْ هُوَ سَعيدٌ في إقامَتِهِ بَمنْزِلِ السَّيِّدِ براوِنْلو. وفَجْأةً قَطَعَ تَفْكِيرَهُ صَوْتُ فَتاةٍ تَدْنو مِنْهُ وَتُعانِقُهُ وهي تَصيحُ قائِلَةً: «أخي! أخي! الحَبيبَ!»

حاوَلَ أوليڤر جاهِدًا أنْ يَتَخَلَّصَ مِنْ عِناق الفَتاةِ الَّتي لم تَكُنْ سِوَى نانسي، وَلكِنَّها أَحْكَمَتِ الحِصارَ حَوْلَهُ حَتَّى جاءَ بيل سايكس وَمَعَهُ كَلبُهُ الأَبْيَضُ.

أفاقَ أوليڤر مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ ليَجِدَ رَجُلًا قَوِيًّا، يَتْبَعُهُ كَلبٌ يُحْكِمُ قَبْضَتَهُ عَليْهِ.

التَفَتَ الصَّبِيُّ حَوْلَهُ في هَلعٍ، ولَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ شَخْصٌ واحِدٌ يَسيرُ في الشَّارِعِ، فَأَيْقَنَ أَنَّ المُقاوَمَةَ عَديمَةُ الجَدْوَى. وَفي لَمْحِ البَصَرِ، ساقَ الاثْنانِ أوليڤر عَبْرَ شَوارِعَ ضَيِّقَةٍ قَذِرَةٍ يُغَلِّفُها ظَلامٌ دامِسٌ.

وَقَفَتِ السَّيِّدَةُ بدوين أمامَ عَتبَةِ المَنْزِلِ تَنْتَظِرُ عَوْدَةَ أوليڤر بِقَلقٍ شَديدٍ، في حِينَ ظَلَّ السَّيِّدُ براوِنْلو وَصديقُهُ يُراقِبانِ السَّاعَةَ مَعًا.

انْعَطَفَ الصّبِيُّ وَمُخْتَطِفاهُ إلى أَحَدِ الأزِقَّةِ الضَّيِّقَةِ القَذِرَةِ، الَّتي تَعِجُّ بِمتاجِرَ لبَيْعِ المَلابِسِ القَديمَةِ. وَوَثَبَ الكَلْبُ، وَتَوَقَّفَ أَمامَ

بَابِ مَنْزِلٍ يَبْدو مِنَ الخارِجِ وَكأَنَّهُ مَهْجورٌ.

تَوَقَّفَ الجَميعُ، وَنَظَرَ بيل سايكس حَوْلَه بِحَذَرٍ شَديدٍ، ثُمَّ انْحَنَتِ الفَتاةُ وَدَقَّتِ الجَرَسَ، ثُمَّ عَبَروا ثلاثَتُهُم الشَّارِعَ حَيْثُ تَوَقَّفُوا أَسْفَلَ عَمودِ إنارة. وَبِهدوءٍ انْفَتَحَتْ إحْدى نَوافِذِ المَنْزِلِ، ثُمَّ فُتِحَ البابُ. ودَفَعَ سايكس أوليڤر أمامَهُ، وَدَخَلَ الثَّلاثَةُ إلى الدَّاخِلِ.

كانَ المَمَرُّ غارِقًا في ظَلام دامِسٍ، فانْتَظَروا حَتَّى عادَ الشَّخْصُ الَّذي فَتَحَ لهُمُ البابَ، وَأَشْعَلَ شَمْعَةً تَبَيَّنَ أوليڤر عَلى ضَوْئِها أَنَّهُ يَقِفُ أمامَ جاك المُحْتالِ البارِعِ.

قادَ جاك الطَّريقَ، وَاجْتازُوا خَلفَهُ مَطْبَخًا مَهْجورًا، ثُمَّ فَتَحَ بابًا جانِبِيًّا.

وما إنْ ظَهَرَ أوليڤر بِثِيابِهِ الجَديدَةِ النَّظيفَةِ حَتَّى انْدَفَعَ تشارلي بيتس في إحْدى نَوْباتِ الضَّحِكِ المَعْهودَةِ حَتَّى اسْتَلقى عَلى قَفاهُ.

خَلَعَ العجوزُ قُبَّعَتَهُ، وَانْحَنى عِدَّةَ انْحناءاتٍ أمامَ الصبِيِّ الَّذي وَقَفَ مَشْدوهًا، على حينَ انْهَمَكَ جاك في تَفْتيشِ جُيوبِهِ.

قالَ تشارلي بيتس بَعْدَ أَنْ تَمالكَ نَفْسَهُ: «انْظُرْ، يا فاجِن، إلى ثِيابِهِ الفاخِرَةِ، وَالكُتُبِ الَّتي تَحْتَ إبْطِهِ، إنَّه يَبْدو من

الأغْنياءِ!»

قالَ العَجوزُ بِسُخْرِيَةٍ لاذِعَةٍ: «تُسْعِدُني رُؤْيَتُكَ، يا عَزيزي! سَيُعْطيكَ جاكْ ثِيابًا أُخْرى حَتَّى لا تَتَّسِخَ ثِيابُك الجَميلةُ. وَلكِنْ لِمَ لَمْ تَكْتُبْ لنا، وَتُخْبِرْنا بِمَجيئِكَ حَتَّى نُعِدَّ لكَ وَجْبَةً شَهِيَّةً تَليقُ بِمَكانَتِكَ؟»

عِنْدَ هذا التَّعْليقِ ضَجَّ الجَميعُ بالضَّحِكِ، وَلَمْ يَتَوقَّفوا إلّا عِنْدَما أَخْرَجَ جاكْ الجُنَيْهاتِ الخَمْسَةَ مِنْ جَيْبِ أوليڤر.

أَطْلَقَ سايكس صَفيرًا عاليًا، وَدبَّ شِجارٌ حادٌّ بينَهُ وَبَيْنَ العجوزِ حَوْلَ أَمْرِ النُّقودِ، لَمْ يَحْسِمْهُ سِوَى تَهْديدِهِ للعَجوزِ بإعادَةِ الصَّبِيِّ إلى مَنْزِلِ السَّيِّدِ براوِنْلو مَرَّةً أخْرى ما لَمْ يَقْتَسِمِ النُّقودَ هُوَ وَالفَتاةُ. ثُمَّ أَرْدَفَ قائِلًا للعَجوزِ بأنَّهُ يَسْتَطيعُ أَنْ يَحْتَفِظَ لنَفْسِهِ بالكُتُبِ إذا كانَ مُغْرَمًا بالقِراءَةِ، أَوْ يَبيعَها، وَيَسْتَفيدَ مِنْ ثَمَنِها.

انْدَفَعَ أوليڤر قائِلًا: «لا، أرجوكَ! إنّها كُتُبُ السَّيِّدِ الطَّيِّبِ، السَّيِّدِ الكَريمِ الَّذي أَطْعَمَني، وآواني وَمَرَّضني عِنْدَمَا أَشْرَفْتُ عَلى الهَلاكِ مِنَ الحُمَّى. سَيظُنُّ أَنّني سَرَقْتُها، وكَذَلكَ السَّيِّدَةُ العَطوفُ. أرْجوكَ!» ثُمَّ جَثا أوليڤر عِنْدَ قَدَمَي فاجِن مُسْتَعْطِفًا.

سَخِرَ الجَميعُ مِنْ تَوَسُّلاتِ أوليڤر. وَفَجْأَةً نَهَضَ الصَّبِيُّ، وأَطْلَقَ ساقَيْهِ للرِّيحِ وَهُوَ يَصْرُخُ طالبًا النَّجْدَةَ، فانْدَفَعَ خَلْفَهُ اليَهودِيُّ وصَبِيّانِ يُريدانِ اللَّحاقَ بِهِ.

لكَزَ بيل سايكس كَلبَهُ لِيَنْطَلِقَ في إثْرِ أوليڤر، ولكن نانسي هَبَّتْ صارِخَةً: «أمْسِكْ كَلبَكَ يا سايكس؛ فإنَّهُ إذا ما لحِقَ بالصَّبيِّ فَسَيُمَزِّقُهُ إرْبًا إرْبًا!» ثُمَّ انْدَفَعَتْ، وَأَغْلَقَتِ البابَ، وَوَقَفَتْ خَلْفَهُ لتَحولَ دُونَ خُروجِ الكَلبِ.

تَوَهَّجَتْ عَيْنا سايكس غَضَبًا، وَصَرَخَ في الفَتاةِ: «ابْتَعِدي عَنْ طَريقي، وَإلّا هَشَّمْتُ رَأسَكِ!» وَدَفَعها دَفْعَةً قَوِيَّةً أطاحَتْ بها إلى مُؤَخِّرَةِ الحُجْرَةِ، في الوَقْتِ الَّذي عادَ فيه فاجِن العَجوزُ وَالصَّبِيّانِ يَجُرُّون أوليڤر.

تَلاحَقَتْ أنْفاسُ الصَّبِيِّ وَهُوَ يَرى اليهودِيَّ يَسْحَبُ عَصًا غَليظَةً، وَيَهوِي بِها عَلى كَتِفَيْهِ وَهَمَّ أنْ يُعيدَ الكَرَّةَ. لَوْلا أنِ انْدَفَعَتِ نانسي، وانْتَزَعَتْها مِنْهُ، وَألْقَتْ بِها في المِدْفَأةِ، وَهَدَّدَتْهُ بأَنَّها سَتَرْتَكِبُ جريمَةً ما لَمْ يَدَعِ الصَّبِيَّ وَشأنَهُ.

تَدَخَّلَ سايكس لِيُسْكِتَ نانسي؛ ظَنًّا مِنْهُ أنَّها تُمَثِّل دَوْرَ الفَتاةِ

النَّبيلَةِ لتكْسِبَ جانِبَ أوليڤر، وَلكِنَّها بَدأتْ تَتَحَوَّلُ بالفِعْلِ إلى فَتاةٍ نَبيلةٍ وَهِيَ تُواجِهُ صَلابَةَ الصّخورِ الجامِدَةِ في تِلكَ الصُّدورِ ممَّا جَعَلها تَصْرُخُ بِصورَةٍ هِسْتيرِيَّةٍ: «لَيْتَني مِتُّ قَبْلَ أنْ أشْتَرِكَ في خَطْفِ الصَّبِيِّ. إنَّكُمْ بِهذا سَتُحوِّلونَهُ إلى لصٍّ، وأفَّاكٍ، وَقاتِلٍ! ألا يَكْفيكُمْ هذا؟ لماذا تُكيلونَ لهُ كُلَّ هذا الضَّرْبِ؟ لقَدْ جَعَلْتَني أسْرِقُ لكَ يا فاجِن، عِنْدَما كُنْتُ أصْغَرَ سِنًّا مِنْ هذا الصَّبِيِّ، وَجَعَلْتَ مِنَ الأزِقَّةِ القَذِرَةِ البارِدَةِ مَأْوًى لي! وسَتُبْقيني هُنا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ حَتَّى أموتَ!»

ردَّ العَجوزُ بِبُرودٍ: «نَعَمْ. لَقَدْ سَبَّبْتُ لكِ كُلَّ هذِهِ الأضْرارِ وَالشُّرورِ، وَسأزيدُكِ مِنْها إذا تَفَوَّهْتِ بِكَلِمَةٍ أُخْرَى!»

صَمَتَتِ الفَتاةُ على مَضَضٍ، ثُمَّ أَخَذَتْ تُنَسِّلُ شَعْرَهَا، وَتُمَزِّقُ ثِيابَها بِصورَةٍ هِسْتيرِيَّةٍ، ثُمَّ كَرَّتْ عَلى اليهودِيِّ، لوْلا أنْ أمْسَكَ سايكس بِيَدَيْها في اللَّحْظَةِ المُناسِبَةِ. وَصارَعَتِ الفَتاةُ لتُفْلِتَ مِنْ قَبْضَتَيْهِ دُونَ جَدْوى، ثُمَّ سَقَطَتْ مَغْشِيًّا عَلَيْها.

الفصل الثّاني عشر

أوليڤر يَشْتَرِكُ في عَمَلِيَّةِ سَطو

في العاشِرَةِ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ التّالي خَرَجَ كُلٌّ من جاك وبيتس مِنَ المَنْزِلِ للعَمَلِ، وَمَكَثَ أوليڤر وَاليَهودِيُّ حَيْثُ ألقى عَلَيْهِ مُحاضَرَةً في نُكْرانِ الجَميلِ الَّذي أبْداهُ تُجاهَ الرَّجُلِ الكَريمِ الَّذي آواهُ، وَأطْعَمَهُ، فَلَوْلاهُ لكَانَ الصَّبِيُّ قَدْ هَلكَ جوعًا. وَقَصَّ عَلَيْه قِصَّةَ صَبِيٍّ دَفَعَ بِهِ إلى حَبْلِ المِشْنَقَةِ، لأَنَّهُ حاوَلَ إرشادَ الشُّرْطَةِ عَنْهُ.

جَمَدَ الدَّمُ في عُروقِ أوليڤر وَهُوَ يَسْتَمِعُ إلى كَلِماتِ العَجوزِ، الَّتي تَحْمِلُ له تَهْديدًا واضِحًا وصَريحًا. رَأى اليَهودِيُّ وَقْعَ حَديثِهِ عَلى أوليڤر، فَابْتَسَمَ بِطَريقَةٍ مُنَفِّرَةٍ، ثمَّ رَبَّتَ عَلى رَأسِ الصَّبِيِّ، وَطَمْأنَهُ بأَنَّهُ إذا ما لزِمَ الصَّمْتَ وَالهُدوءَ، وَامْتَثَلَ لِأوامِرِهِ، فإنَّهُما

سَيَظَلّان صَديقَيْنِ. ثُمَّ وَضَعَ قُبَّعَتَهُ، وَارْتَدى مِعْطَفَهُ، وَخَرَجَ مِنَ الحُجْرَةِ، وَأَحْكَمَ إغْلاقَ البابِ خَلْفَهُ.

ظَلَّ أوليڤر في ذَلِكَ اليَوْمِ، وأَيّامٍ عَديدةٍ تاليَةٍ قابِعًا وَحيدًا في الحُجْرَةِ لا تُؤْنِسُه سِوَى أفْكارِهِ الحَزينَةِ.

وَفي إحْدَى الليالي الكَئيبَةِ البارِدَةِ، تَدَثَّرَ اليَهودِيُّ بِمِعْطَفِهِ، وَرَفَعَ ياقَتَهُ حتَّى بَلغَتْ أُذُنَيْهِ، فَلَمْ يَبِنْ مِنْ وَجْهِهِ شَيْءٌ، وَغادَرَ وَكْرَهُ وَسارَ في طُرُقاتٍ مُوحِلَةٍ حتَّى بَلَغَ مَنْزِلَ بيل سايكس.

دَخَلَ العَجوزُ، فَوَجَدَ سايكس ونانسي كِلَيْهِما بِجِوارِ المِدْفَأَةِ، فَسَأَلَهُ عَنِ المَوْعِدِ المُتَّفَقِ عَليْه لِتَنْفيذِ عَمَليَّةِ السَّطْوِ، فَأَخْبَرَهُ سايكس بِأَنَّ المَهَمَّةَ عَسيرةٌ؛ فَالمَنْزِلُ مُحصَّنٌ، وَالخَدَمُ لا يُمْكِنُ شِراؤُهُم بِالمالِ.

خَيَّمَ الصَّمْتُ على المَكانِ فَتْرَةً طويلةً مِنَ الوَقْتِ، وَفَجْأَةً قالَ سايكس للعَجوزِ: «سَتَتِمُّ العَمَلِيَّةُ في مَوْعِدِها يا فاجِن. سَتَتِمُّ شَريطَةَ أنْ تُعْطِيَني خَمْسينَ جُنَيْهًا زيادَةً، وَصَبِيًّا ضئيلَ الجِسْمِ.»

«لكَ هذا يا سايكس، وَالصَّبِيُّ أيْضًا مَوْجودٌ وأَعْتَقِدُ أَنَّ أوليڤر يفي بهذا الغَرَضِ فَهُوَ نَحيفٌ بما فيه الكفايةُ. لَقَدْ دَأَبْتُ عَلى

تَدْرِيبِهِ طَوالَ الأسابيعِ الماضِيَةِ، وَحانَ الوَقْتُ ليَتَكَسَّبَ قوتَهُ بِنَفْسِهِ كَما أَنَّهُ سَيُطيعُ أَوَامِرَكَ إِذا ما أَحَسَّ مِنْكَ رَهْبَةً.»

«ويا لَها مِنْ رَهْبَةٍ! إِنَّه إِذا لَمْ يَمْتَثِلْ لأوامِري فلنْ يَشْعُرَ بِخَوْفٍ أبدًا بَعْدَ ذلكَ لأنه سَيَفْقِدُ حَياتَه ولنْ تَراهُ أَنْتَ مَرَّةً ثانِيَةً. فكِّرْ في هذا جيِّدًا قَبْلَ أَنْ تُرْسِلَهُ إليَّ.»

جَهَّزَ سايكس لعَمليَّةِ السَّطْوِ مَعَ أَحَدِ الأشْقياءِ وَيُدْعى توبي، وَقَرَّرَ أَنْ تَتِمَّ العَمَليَّةُ بَعْدَ يَوْمَيْنِ، وَاتَّفَقَ مَعَ العَجُوزِ على حُضورِ أوليڤر مَساءَ اليَوْمِ التّالي. ووَقَعَ الاخْتِيارُ عَلى نانسي لتَقومَ بإِحْضارِهِ، لأَنَّ الصَّبِيَّ لنْ يُمانِعَ في أَنْ تَصْحَبَهُ بَعْدَ ما أَبْدَتْهُ مِنَ تَعاطُفٍ مَعَهُ. ونَظَرَ العجوزُ طَويلًا إلى نانسي، ثُمَّ قَطَّبَ ما بَيْنَ حاجِبَيْهِ، وَغادَرَ المَكانَ.

الفصل الثالث عشر

المُحاوَلَة

اسْتَيْقَظَ أوليڤر في صَباح اليَوْمِ التّالي، وَعَلِمَ مِنَ اليَهوديِّ أَنَّهُ سَيَذْهَبُ إلى مَنْزِلِ بيل سايكس لأداءِ بَعْضِ المَهامِّ المُوكَلةِ إليْهِ، ثُمَّ يَعودُ أَدْراجَهُ بَعْدَ أَنْ يَفْرُغَ مِنْ مَهَمَّتِهِ. ولم يُفْصِحْ لهُ عَنْ طَبيعَةِ هذِهِ المهَمَّةِ.

وَفي المسَاءِ، أعْطى اليَهودِيُّ لأوليڤر شَمْعَةً، وكِتابًا، وَأَخْبَرهُ أَنْ يَنْتَظِرَ حَتَّى يَحْضُرَ شَخْصٌ ما ويَصْطَحِبَهُ. وَأَوْصاه بأَنْ يَمْتَثِلَ لأوامِرِ سايكس وَيُنَفِّذَها دونَ جِدالٍ ليَأْمَنَ شَرَّهُ، ثُمَّ تَرَكَهُ وانْصَرَفَ.

شَعَرَ أوليڤر بِالقَلَقِ يُساوِرُهُ مِنْ تَنْبيهاتِ العَجوزِ، فَفَتَحَ الكِتابَ، وطَفِقَ يَقْرَأُ فيه ليَقْضِيَ عَلى قَلَقِهِ.

كانَ الكِتابُ عَنِ الجَريمَةِ والمُجْرِمين، قَرَأَ فِيهِ الصَّبِيُّ عَنْ

جَرائِم يَنِدُّ لها الجَبينُ، وَيَجْعَلُ الدِّماءَ تَتَجَمَّدُ في العروقِ حَتَّى خُيِّلَ إليْهِ أنَّ صَفَحاتِ الكِتابِ قَدِ اسْتَحالتْ بلوْنِ الدِّماءِ مِنْ هَوْلِ المَسْطورِ.

أغْلقَ أوليڤر الكِتابَ، وَنَحَّاهُ جانِبًا، وَجَثا على رُكْبَتَيْهِ، وَدَعا اللهَ أنْ يُجَنِّبَهُ شرَّ هذا الطَّريقِ، وَيُنَجِّيَهُ مِنْ هَذا المكانِ.

وَبَيْنَما هُوَ عَلى هذه الحال سَمِعَ طَرْقًا على البابِ، فَفَتَحَهُ ليَجِدَ نانسي شاحِبَةَ الوَجْهِ وَجِلَةً خائِفَةً.

دَخَلَتِ الفَتاةُ بِسُرْعَةٍ، وَأخَذَتْ تَسيرُ في الغُرْفَةِ جيئَةً وَذَهابًا، ثُمَّ تَمالكَتْ نَفْسَها، وَقالتْ لأوليڤر بأنَّها حَضَرَتْ خِصّيصًا لتَصْحَبَهُ إلى بيل سايكس.

ظَنَّ أوليڤر أنّ بإمكانِهِ اسْتِدْرارَ عَطْفِ الفَتاةِ لتُساعِدَهُ عَلى الهَرَبِ مِنْ هَذا المكانِ. كانَتِ السَّاعَةُ لم توشِكْ بَعْدُ على العاشِرَةِ، وَالشَّوارِعُ مُكْتَظَّةً بِالمارَّةِ، وهذا يَعْني أنَّه من المُمْكِنِ أنْ يَسْتَغيثَ بِهِمْ، ومن ثَمَّ فقد أخْبرَ نانسي بأنّهُ مُسْتَعِدٌّ للخُروجِ مَعَها.

أمْعَنَتْ نانسي النَّظَرَ إلى أوليڤر، وَخَمَّنَتْ ما يَدورُ بِخَلدِهِ، فَقالتْ لهُ:

«لَقَدْ أنقَذْتُكَ مِنْ قَبْلُ، فكانَ جَزائي الإهانَةَ والضَّرْبَ، فَإذا لَمْ تَلتَزِمِ الهُدوءَ اللَّيْلَةَ فرُبَّما كانَ في ذلكَ هَلاكي. وَلتَعْلَمْ أنَّ هذهِ السَّحَجاتِ بِسَبَبِكَ أنْتَ.» ثُمَّ أشارَتْ إلى بَعْضِ السَّحَجاتِ الزَّرْقاءِ حَوْلَ عُنُقِها وَذِراعَيْها مِنْ أثَرِ الضَّرْبِ المُبَرِّحِ وأرْدَفَتْ قائِلَةً: «تَذَكَّرْ هذا ولا تَتَسَبَّبْ في مُعاناتي أكْثَرَ مِنْ هذا. إنَّني أريدُ مُساعَدَتَكَ، وَلكِنْ هَذا لَيْسَ في مَقْدوري، هاتِ يَدَكَ.. أسْرِعْ!»

أمْسَكَتْ نانسي بِيَدِ أوليڤر، وَأطْفَأتِ الشَّمْعَةَ، وَخَرَجَ الاثْنانِ حَيْثُ وَجَدا عَرَبَةً تَنْتَظِرُهُما فَرَكِباها، وأسْدَلَتْ نانسي السَّتائِرَ وانْطَلَقَتِ العَرَبَةُ بِأقْصى سُرْعَتِها، ثُمَّ تَوَقَّفَتْ أمامَ مَنْزِلِ بيل سايكس.

سَأل سايكس الفَتاةَ عَمّا إذا كانَ أوليڤر قَدْ سَبَّبَ لها أيَّةَ مَتاعِبَ، فَطمْأنَتْهُ بِأنَّهُ كانَ وَديعًا كالحَمَلِ، فأمَرَهُ بالاقْتِرابِ، والإنْصاتِ التّامِّ.

جَلسَ سايكس إلى مِنْضَدَةٍ، وَجَذَبَ أوليڤر أمامَهُ، وَأمْسَكَ مُسَدَّسًا، وَحَشاهُ بِالرَّصاصِ، ثُمَّ صَوَّبَ فُوَّهَةَ المُسَدَّسِ إلى رَأس الصَّبِيِّ، وَهَدَّدَهُ بِأنَّهُ إذا ما سَوَّلَتْ لَهُ نَفْسُهُ أمْرًا دُونَ أنْ يأذَنَ لَهُ، فَسَيَسْتَقِرُّ الرَّصاصُ في رَأسِهِ. ثُمَّ أمَرَ نانسي بِأنْ تُعِدَّ لَهُمُ العَشاءَ،

قَبْلَ أنْ يَنالوا قِسْطًا مِنَ النَّوْمِ.

وَفي اليَوْمِ التَّالي، غادَرَ كُلٌّ من سايكس وأوليفر المَنْزِلَ. وكانَ الجَوُّ مُكْفَهِرًّا، وَالسَّماءُ مُلبَّدَةً بِالغُيومِ، وَتُنْذِرُ بِعَواصِفَ. وأَحْكَمَ سايكس قَبْضَتَهُ عَلى الصَّبِيِّ، وسارَ بِهِ خِلالَ طُرُقاتٍ وَعْرَةٍ وَمُلتوِيَةٍ، حَتَّى بَلَغَا مَنْزِلًا مُتَهَدِّمًا، يَقِفُ وَحيدًا في مِنْطَقَةٍ نائِيَةٍ مُنْعَزِلَةٍ، يَبْدو مِنَ الخارِجِ مَهْجورًا. دَفَعَ سايكس بابَ المَنْزِلِ وَدَخَلَ، فَوَجَدَ في انْتِظارِهِما «توبي كراكيت» أحَدَ لصوصِ المنازِلِ.

دَخَلَ الثَّلاثَةُ غُرْفَةً مُظْلِمَةً بِها مِنْضَدَةٌ، وَمَقْعَدانِ، وَتَناولوا وَجْبَةً خَفيفَةً. وفي السَّاعَةِ الواحِدَةِ والنِّصْفِ، لبِسَ الاثْنانِ مِعْطَفَيْهِما، وَغَطَّى كُلٌّ مِنْهُما وَجْهَهُ بِلثامٍ داكِنٍ، وَغادَروا المَنْزِلَ، وَمَضَوْا في طَريقِهِمْ.

كانَتِ الشَّوارِعُ سابِحَةً في ظَلامٍ دامِسٍ، وَالضَّبابُ كَثيفٌ، وَعَبَرَ الثَّلاثَةُ جِسْرًا يُؤَدِّي إلى مَدينَةِ «تِشرْتسي» الصَّغيرَةِ، بِشوارِعِها الَّتي تَخْلو مِنَ المارَّةِ في ذلكَ الوَقْتِ المُتَأَخِّرِ. وَبَعْدَ مَسافَةِ نِصْفِ كيلومِتْرٍ تَقْريبًا تَوَقَّفوا أمامَ مَنْزِلٍ يَحوطُهُ سِياجٌ (سورٌ) مرتَفِعٌ، تَسَلَّقَهُ توبي بِخِفَّةِ القِطِّ، ثُمَّ رَفَعَ سايكس الصَّبِيَّ، وَتَسَلقَ السِّياجَ وَراءَهُ. وَفي ثَوانٍ، كانَ الثَّلاثَةُ مُفْتَرِشينَ الحَشائِشَ في الجانِبِ الآخَرِ، ثُمَّ

تَسَلَّلوا مُباشَرَةً في اتِّجاهِ المَنْزِلِ.

وأَيْقَنَ أوليڤر لأَوَّلِ مَرَّةٍ أَنَّ الهَدَفَ مِنْ رِحْلتِهِمْ هُوَ السَّطْوُ على هذا المَنْزِلِ، وَسَرِقَتُهُ. وَغَطَّتْ عَيْنَيْهِ غشاوَةٌ، وَتَصَبَّبَ العَرَقُ بارِدًا عَلى وَجْهِهِ، وَعَجَزَتْ قَدَماهُ عَنْ حَمْلِهِ فَخَرَّ على الأَرْضِ.

أَخْرَجَ سايكس المُسَدَّسَ مِنْ جَيْبِهِ، وَلَوَّح بِهِ لأوليڤر، وأَمَرَهُ بأَنْ يَنْهَضَ وَإِلّا هَشَّمَ رَأْسَهُ. تَوَسَّلَ إلَيْهِ الصَّبِيُّ أَنْ يَدَعَهُ يَنْصَرِفُ، وَألا يَجْعَلَ مِنْهُ لِصًّا، فَصَوَّبَ سايكس فُوَّهَةَ المُسَدَّسِ إلى الصَّبِيِّ لِيَقْتُلَهُ، لَوْلا تَدَخُّلُ توبي في اللَّحْظَةِ المُناسِبَةِ، وإِبْعادُهُ يَدَ سايكس، ثُمَّ كَتَمَ أَنْفاسَ الصَّبِيِّ بِيَدِهِ، وَسَحَبَهُ إلى المَنْزِلِ.

تَوَجَّهَ الثَّلاثَةُ إلى نافِذَةٍ صَغيرَةٍ، تَرْتَفِعُ عَنِ الأَرْضِ حَوالي مِتْرٍ وَنِصْفِ المِتْرِ، وَكانَتْ موصَدَةً بِمِزْلاجٍ قَديمٍ، وَيَبْدو أَنَّ أَصْحابَ المَنْزِلِ كانوا يُهْمِلونَ إِغْلاقَ هذه النّافِذَةِ ظَنًّا مِنْهُمْ بِأَنَّهُ لا ضَرَرَ مِنْها، وَلكِنَّها كانَتْ تَتَّسِعُ لإِدْخالِ صَبِيٍّ في مِثْلِ حَجْمِ أوليڤر تَقْريبًا.

أَخْرَجَ بيل سايكس مِنْ جَيْبِهِ كَشّافًا، وناوَلَهُ لأوليڤر، مَوَضِّحًا لَهُ أَنَّ عَلَيْهِ أَنْ يَعْبُرَ مِنَ النّافِذَةِ إلى البَيْتِ، حَيْثُ يَجِدُ أَمامَهُ بَعْضَ الدَّرَجاتِ، فَيَصْعَدَها لِيَصِلَ إلى رَدْهَةٍ صَغيرَةٍ، تُفْضي بِهِ إلى بابِ



المَنْزِلِ فَيَفْتَحُهُ لِيَدْخُلَ مِنْهُ كُلٌّ من سايكس وتوبي. وَلمْ يَنْسَ سايكس أنْ يُجَدِّدَ خَوْفَ أوليڤر، وَيُحَذِّرَهُ مِنْ أَنَّهُ سيكونُ تَحْتَ عَيْنَيْهِ طَوالَ الوَقْتِ، فإذا ما تَرَدَّدَ لحْظَةً واحِدَةً، فَهُوَ هالكٌ لا مَحالةَ.

انْحَنَى توبي واعْتَلى سايكس ظَهْرَهُ، ثُمَّ رَفَعَ أوليڤر، وَأدْخَلهُ مِنَ النَّافِذَةِ، وَأشارَ بِفُوَّهَةِ المُسَدَّسِ إلى دَرَجاتِ السُّلَّمِ.

سَارَ الصَّبِيُّ عاقِدًا عَزْمَهُ عَلى تَنْبيهِ أصْحابِ المَنْزِلِ، حَتّى لَوْ لقِيَ حَتْفَهُ في سَبيلِ ذلكَ.

وَفَجْأةً سَمِعَ صَوْتَ سايكس يُناديهِ: «عُدْ إلى هُنا! عُدْ سَريعًا!»

فُوجِئَ الصَّبِيُّ بِضَجَّةٍ عاليةٍ مَزَّقَتْ سُكونَ الليْلِ تَبِعَتْها صَرْخَةٌ مُدَوِّيَةٌ فَهَوى الكَشّافُ مِنْ يَدهِ، ووَقَفَ حائِرًا لا يَعْرِفُ هَلْ يَتَقَدَّمُ، أمْ يَتَقَهْقَرُ.

وتَكَرَّرَتِ الصَّيْحاتُ، وأُضيئَتِ الأنْوارُ، وظَهَرَ رَجُلانِ مَذْعورانِ في مَلابِسِ النَّوْم على حافَةِ السُّلم، وَحَدَثَ هَرْجٌ وَمَرْجٌ، وانْطَلَقَ عِيارٌ نارِيٌّ وامْتَلأتْ على أثَرِهِ الرَّدْهَةُ بِالدُّخانِ.

اخْتَفى سايكس مِنَ النَّافِذَةِ، ثُمَّ ظَهَرَ بَعْدَ أنِ انْقَشَعَ الدُّخانُ، وَجَذَبَ أوليڤر، ثُمَّ أطْلَقَ الرَّصاصَ عَلى الرَّجُلَيْنِ.

صاحَ سايكس: «تَشَبَّثْ بي جَيِّدًا. أعْطِني شالكَ يا توبي. لقَدْ أُصيبَ الصَّبِيُّ. إنَّهُ يَنْزِفُ.»

تَناهى إلى سَمْعِ أوليڤر أصواتُ أجْراسٍ تَدُقُّ مُخْتَلِطَةً بأصْواتِ رِجالٍ يَصيحون، وَطَلَقاتِ رَصاصٍ تُدَوِّي، ثُمَّ شَعَرَ بسايكس وَهُوَ يَعْدو بِهِ بأقْصَى ما لدَيْهِ مِنْ سُرْعَةٍ عَبْرَ أراضٍ وَعْرَةٍ. وَشَيْئًا فَشَيْئًا خَفَتَتِ الضَّجَّةُ، وَحَلَّ مَحَلها شُعورٌ عَميقٌ بِالتَّعاسَةِ، ثُمَّ غابَ عَنِ الوَعْي.

الفصل الرابع عشر

السَّيِّدُ «جايلز» يُمْسِكُ بِاللِّصِّ

اشْتَدَّتِ المُطارَدَةُ بَيْنَ أَهْلِ المَنْزِلِ وَاللُّصوصِ، وضاقَتِ المَسافَةُ بَيْنَ الجانِبَيْنِ، فَصَرَخَ توبي في سايكس لِيَتْرُكَ أوليڤر، ويَفِرَّ بِأَقْصَى سُرْعَةٍ.

نَظَرَ سايكس حَوْلَهُ نَظْرَةً خاطِفَةً، ثُمَّ غَطَّى أوليڤر بِشالِهِ، وأَرْقَدَهُ عَلى الأَرْضِ، لا يَعْرِفُ ما إذا كانَ عَلى قَيْدِ الحياةِ أَوْ فارَقَها، وَأَطْلَقَ ساقَيْهِ للرِّيحِ. تَوَقَّفَ الخَدَمُ عَنِ المُطارَدَةِ، وَنادَوْا على كِلابِهِمْ، وقَرَّروا العَوْدَةَ للمَنْزِلِ.

كانَ السَّيِّدُ جايلز هُوَ كَبيرَ الخَدَمِ في المَنْزِلِ الَّذي وَقَعَتْ فيهِ مُحاوَلَةُ السَّطْوِ، والآخَرانِ مُساعِدَيْنِ لَهُ. وَشَعَرَ ثَلاثَتُهُمْ بِالخَوْفِ مِن اسْتِمْرارِ المُطارَدَةِ فَرَحَّبوا جَميعًا بِقَرارِ العَوْدَةِ.

رَقَدَ أوليفر في الحُقولِ بِلا حَراكٍ، وَبَعْدَ فَتْرَةٍ طَويلَةٍ اسْتَعادَ وَعْيَهُ، وَأَطْلَقَ صَرْخَةً واهِنَةً مِنَ فَرْطِ الألَمِ. كانَتْ ذِراعُهُ اليُسْرى مَشْدودَةً بِالشَّالِ، ويَصْدُرُ عَنْها ألَمٌ رَهيبٌ. وأرادَ الصَّبِيُّ النُّهوضَ، فَلَمْ تُسْعِفْهُ قُواهُ، وَبَعْدَ جَهْدٍ جَهيدٍ تَمَكَّنَ من النُّهوضِ، وَمَشَى مُتَرَنِّحًا حَتَّى قارِعَةِ الطَّريقِ، وَهُناكَ لَمَحَ مَنْزِلًا، فَقَصَدَهُ طَلَبًا للعَوْنِ وَسارَ عَبْرَ مَمَرِّه، وَصَعِدَ السُّلَّمَ، وَبِمَشَقَّةٍ بالغَةٍ طَرَقَ البابَ، وَسَقَطَ عَلى عَتَبَتِهِ.

كانَ السَّيِّدُ جايلز في ذلك الوَقْتِ يَحْتَسي الشَّايَ في مَطْبَخِ المَنْزِلِ، وَيَقُصُّ عَلى سامِعيهِ وَمِنْ بَيْنِهِمُ الطَّاهِيَةُ والخادِمَةُ، تَفاصيلَ حادِثِ السَّطْوِ الَّذي وَقَعَ، وَدَوْرَهُ البارِزَ في صَدِّ اللصوصِ، في حينَ جَلَسَ الجَميعُ مُنْصِتينَ وكأنَّ على رُءوسِهِمُ الطَّيْرَ. وَفَجْأَةً سَمِعوا طَرَقاتٍ خافِتَةً عَلى الباب.

تَمَلكَ الجَميعَ فَزَعٌ شَديدٌ، حَيْثُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنَ المُعْتادِ أَنْ يأْتِيَ زائِرٌ في هذا الوقْتِ المُبَكِّرِ مِنَ الصَّباحِ. وَبَعْدَ مُشاوَراتٍ حَوْلَ مَنْ يَذْهَبُ لِيَفْتَحَ البابَ، قَرَّروا أَنْ يَذْهبوا جَميعًا، وَيَسيروا بِخُطًى ثابِتَةٍ ومُجَلجِلَةٍ حَتَّى يُلقُوا في قَلْبِ الطارِقِ- إذا ما كانَ يُريدُ بِهِمْ شَرًّا - أَنَّهُمْ عُصْبَةٌ قَوِيَّةٌ، كما أَمَرَهَم السَّيِّدُ جايلز بأَنْ يَلكُزوا

الكِلابَ حَتَّى تَنْبَحَ بِصَوْتٍ عالٍ.

وَبَعْدَ اتِّخاذِ هٰذِهِ الاحْتِياطاتِ، أَمَرَ السَّيِّدُ جايلز بِفَتْحِ البابِ.

اشْرَأَبَّتِ الأَعْناقُ لِتَرى مَنِ الطّارِقُ، وَلِدَهْشَتِهِمْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ سِوى أوليڤر المِسْكينِ الَّذي نَظَرَ إِلَيْهِمْ بِعَيْنَيْنِ زائِغَتَيْنِ، مُلتَمِسًا مِنْهُمُ العَوْنَ والشَّفَقَةَ.

نَظَرَ السَّيِّدُ جايلز في دَهْشَةٍ، ثُمَّ صاحَ بِانْفِعالٍ شَديدٍ: «إِنَّهُ هُوَ! أَحَدُ اللُّصوصِ الذين سَطَوْا عَلى المَنْزِلِ.. سَيِّدَتي! إِنَّهُ اللِّصُّ! لَقَدْ أَصَبْتُهُ!»

هَرْوَلَتِ الخادِمَتانِ إِلى الطّابَقِ العُلوِيِّ حامِلَتَيْنِ الأَنْباءَ لِصاحِبَةِ المَنْزِلِ، في حينَ انْكَبَّ السَّيِّدُ جايلز على أوليڤر يُحاوِلُ إِسْعافَهُ؛ خَشْيَةَ أَنْ يَموتَ قَبْلَ أَنْ يُحاكَمَ ويُشْنَقَ. وَوَسْطَ هٰذِهِ الضَّجَّةِ، رَنَّ صَوْتٌ نِسائِيٌّ رَقيقٌ مِنْ أَعْلى: «جايلز! اخْفِضْ صَوْتَكَ، لَقَدْ أَفْزَعْتَ عَمَّتي. هَلْ إِصابَةُ هٰذا الصَّبِيِّ المِسْكينِ بالِغَةٌ؟»

«أَجَلْ، يا سَيِّدَتي، إِنَّ إِصابَتَهُ خَطيرَةٌ. أَتَسْمَحينَ بِالمَجيءِ وإِلقاءِ نَظْرَةٍ عَلَيْهِ؟»

أَمَرَتْهُ سَيِّدَتُهُ أَنْ يَلزَمَ الهُدوءَ، وَيَحْمِلَ الصَّبِيَّ إِلى حُجْرَتِهِ،

وَيُرْسِلَ في اسْتِدْعاء طَبيبٍ وَشُرْطيٍّ، ثُمَّ أَوْصَتْهُ بِرِعايَةِ الصَّبِيِّ.

انْصَرَفَتِ السَّيِّدَةُ الشّابَّةُ، وشَيَّعَها جايلز بِنَظْرَةٍ كُلُّها وُدٌّ واحْتِرامٌ كما لوْ كانَتِ ابْنَتَهُ، ثُمَّ حَمَلَ أوليڤر بِحَذَرٍ شَديدٍ إلى غُرْفَتِهِ.

في هذهِ الأَثْناءِ كانَ كُلٌّ من فاجِن اليَهودِيِّ، وتشارلي بيتس وجاك يَلعَبونَ الوَرَقَ، عِنْدَما سَمِعُوا صَوْتَ جَرسِ البابِ.

ذَهَبَ جاك ليَفْتَحَ البابَ، وَعادَ بتوبي الَّذي اقْتَرَبَ مِنَ المائِدَةِ، رافِضًا الإجابَةَ عن أَسْئِلَةِ اليَهودِيِّ حَتَّى يَتناوَلَ بَعْضَ الطَّعام والشَّرابِ. وَعَلى الفَوْرِ أُعِدَّتْ لهُ المائِدَةُ، وَبَدأَ في التِهامِ الطَّعامِ دونَ مُبالاةٍ بِحَيْرَةِ العجوزِ، وقَلَقِهِ، حَتَّى فَرَغَ، فَأَمَرَ جاك، وبيتس بِمُغادَرَةِ الحُجْرَةِ، ثُمَّ أَوْصَدَ البابَ خَلفَهُما، وَأَخْبَرَ العَجوزَ بأَنَّ عَمَليَّةَ السَّطْوِ عَلى المَنْزِلِ قَدْ باءَتْ بِالفَشَلِ.

لَمْ تَكُنْ هَذِهِ الأَنْباءُ جَديدَةً عَلى اليَهودِيِّ؛ فَقَدْ عَلِمَ بِأَمْرِها مِنَ الصُّحُفِ، وَلكِنَّ ما يُهِمُّهُ هُوَ أَمْرُ الصَّبِيِّ، فأَخْبَرَهُ توبي بِأَنَّهُ قَدْ أُصيبَ بِعِيارٍ نارِيٍّ، وَلَمّا اشْتَدَّتِ المُطارَدَةُ اضْطُرَّ إلى أَنْ يَتْرُكاهُ في الحُقولِ بَيْنَ الحَياةِ وَالمَوْتِ.

صَرَخَ العَجوزُ، وَأَخَذَ يَشُدُّ شَعْرَهُ بِيَدَيْهِ، ثُمَّ انْدَفَعَ خارِجَ الحُجْرَةِ، وَانْطَلَقَ في الشَّارِعِ.

الفصل الخامس عشر

ظُهورُ شَخْصِيَّةٍ غامِضَة

بَلَغَ فاجِن نِهايَةَ الشَّارِعِ قَبْلَ أنْ يُفيقَ مِنْ هَوْلِ الصَّدْمَةِ الَّتي حَمَلها إليْهِ توبي كراكيت، وانْعَطَفَ إلى زُقاقٍ ضَيِّقٍ، مُحاوِلًا قَدْرَ الإمْكانِ تَجَنُّبَ الشَّوارِعِ الرَّئيسيةِ، حتّى بَلَغَ في النِّهايةِ مَقْهًى يُعْرَفُ بأنَّه وَكْرٌ لِلُّصُوصِ وَقُطَّاعِ الطُّرُقِ.

صَعِدَ اليهوديُّ مَباشَرَةً إلى الطَّابَقِ العُلوِيِّ، وَدَفَعَ بَابَ حُجْرَةٍ مُكْتَظَّةٍ بالجالِسينَ، ومُعَبَّأَةٍ بِدُخانِ السَّجائِرِ حَتَّى لا يَكادَ المَرْءُ يَتَبَيَّنُ وُجوهَ الجالِسينَ. وَبَعْدَ أنْ أَلِفَتْ عَيْنا اليَهودِيِّ المَكانَ، تَفَحَّصَ وُجوهَ الحاضِرينَ حَتَّى لَمَح صاحِبَ المَقْهَى، فَأَوْمَأَ لهُ، وَخَرَجا معًا مِنَ الحُجْرَةِ. سَأَلَ العَجوزُ عَنْ شَخَصٍ يُدْعَى «مُونكْس»، وَلكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ ضِمْنَ الحاضِرينَ؛ فَتَرَكَ اليَهودِيُّ رِسالةً لهُ يُخْبِرُهُ فيها

بِالحُضورِ فَوْرَ تلقِّيهِ الرِّسالةَ، ثُمَّ ترَكَ المَكانَ قاصِدًا البَيْتَ.

أعْلنَتْ دَقّاتُ السّاعَةِ عَنِ مُنْتَصَفِ الليْلِ. وكانَ الطَّقْسُ قارِسَ البُرودَةِ عِنْدَما بَلغَ اليَهودِيُّ الشّارِعَ الَّذي يَقْطُنُ بِهِ، وَعِنْدَئِذٍ لَمَح شَبَحَ شَخْصٍ يَبْرُزُ في الظَّلامِ، وَيَعْبُرُ الطَّريقَ مُتَّجِهًا نَحْوَهُ، وَلمّا اقْتَرَبَ مِنْهُ تَبَيَّنَ له أنَّهُ، مُونكْس، الشَّخْصُ الَّذي ذَهَبَ للبَحْثِ عَنْهُ في المَقْهى.

دَخَلَ الاثْنانِ المَنْزِلَ، وَتَحَدَّثا هَمْسًا، ثُمَّ رَفَعَ مُونكس صَوْتَهُ قَليلًا وَقالَ للعَجوزِ في حِدَّةٍ:

«لَمْ يَكُنِ التَّخْطيطُ جَيِّدًا، لماذا لَمْ تَسْتَبْقِهِ هُنا مَعَ الآخَرينَ وَتُعَلِّمْهُ السَّرِقَةَ كَما فَعَلتَ مِنْ قَبْلُ مَعَ عَشَراتِ الأطْفال؟ ومَنْ يَدْري؟ فَلَعَلهُ الآن في قَبْضَةِ الشُّرْطَةِ، وَرُبَّما كانَ قَدْ نُفِيَ خارِجَ البِلادِ وَاسْتَرَحْنا مِنْهُ.»

«لَمْ يَكُنْ هذا في مَقْدوري! إنَّهُ لَيْس كَغَيْرِهِ مِنَ الأوْلادِ. ماذا كُنْتُ تُريدُني أنْ أفْعَلَ؟ أأُرْسِلُهُ للعَمَلِ مَعَ تشارلي وجاك كَما حَدَثَ مِنْ قَبْلُ؟»

«هذا ليْسَ شَأني.»

«بَلْ شَأْنُكَ! وَلتَتَذَكَّرْ أَنَّه لوْلا ذلكَ ما كُنْتَ رَأَيْتَ الصَّبِيَّ ضالَّتَكَ المَنْشودَةَ، وَقَدْ أغْرَيْتُ الفَتاةَ حَتَّى تُحْضِرَهُ، وَلكِنَّها تَعاطَفَتْ مَعَهُ بَعْدَ ذلكَ.»

وَبَعْدَ جِدالٍ وَعَدَهُ العَجوزُ بأَنْ يُحاوِلَ مِنْ جَديدٍ أَنْ يَجْعَلَ مِنَ الصَّبِيِّ لِصًّا ماهِرًا إذا كانَ لا يَزالُ عَلى قَيْدِ الحَياةِ. وهُنا نَظَرَ مُونكْس بِعَيْنَيْنِ فَزِعَتَيْنِ، وَأَمْسَكَ بِذِراعِ اليَهودِيِّ وَهُوَ يَرْتَعِشُ، وَقالَ لهُ:

«لا. كُلُّ شَيْءٍ إلا مَوْتَهُ! لقَدْ أَخْبَرْتُكَ مُنْذُ البِدايَةِ أَنَّهُ إذا ماتَ الصَّبِيُّ فَلَيْسَ لي شَأْنٌ بِذلكَ. فَلتَتَذَكَّرْ هذا يا فاجِن! آه! ما هذا؟»

وَهَبَّ مُونكْس على قَدَمَيْهِ، وَأَكَّدَ للعَجوزِ أَنَّه لَمَحَ شَبَحَ امْرَأَةٍ تَرْتَدي عَباءَةً وتَضَعُ قُبَّعَةً. وانْدَفَعَ الاثْنانِ خارِجَ الحُجْرَةِ، وَلكِنْ لمْ يَجِدا شَيْئًا سِوَى الظَّلامِ وَالسُّكونِ.

أَكَّدَ مُونكْس لليَهودِيِّ أَنَّهُ رَأى الشَّبَحَ، وَنَظَرَ العَجوزُ بازْدِراءٍ إلى وَجْهِ مُونكْس الشّاحِبِ، وَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يُفَتِّشا المَنْزِلَ. وذَهَبَ الاثْنانِ، وَبَحَثا في جَميعِ أَرْكانِ الغُرَفِ الخالِيَةِ فَوَجَداها جَميعَها موحِشَةً، وبارِدَةً كالقُبورِ.

الفصل السادس عشر

السَّيِّدُ لوزبيرن العَطوف

في المَنْزِل الَّذي وَقَعَتْ فيهِ مُحاوَلةُ السَّرِقَةِ وَالذي يَرْقُدُ فيهِ أوليفر جَريحًا، جَلسَتْ سَيِّدَتانِ تَتَناقَشانِ حَوْلَ أَحْداثِ اللَّيْلةِ الماضيَةِ، عَلى حينَ وَقَفَ السَّيِّدُ جايلز كَبيرُ الخَدَمِ يُلَبِّي طَلَباتِهِما.

كانَتْ إحْداهُما سَيِّدَةً عَجُوزًا، يَبْدو عَلَيْها الوَقارُ، في حين كانَتِ الأُخْرى فَتاةً، في السّابِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها، في رَيْعانِ الصِّبا والجَمالِ، وَمِثالًا لِلرِّقَّةِ واللُّطْفِ.

سَمِعَتِ السَّيِّدتانِ صَوْتَ جَرَسٍ فَفُتِحَ البابُ، وانْدَفَعَ عَلى أَثَرِهِ رَجُلٌ بَدينٌ ثَرْثارٌ، وَإنْ كانَ يَنْطَوي على عَطْفٍ وَحنانٍ، وَيَحْمِلُ بَيْنَ جَنْبَيْهِ قَلبًا أَبْيَضَ غَضًّا، يَشْعُرُ بذلك مَنْ يَتعاملُ مَعَهُ. كانَ هذا الرَّجُلُ هُوَ الطَّبيبَ السَّيِّدَ لوزبيرن الَّذي جاءَ لِيَرى اللِّصَّ الجَريحَ.

صَعِدَ السَّيِّدُ لوزبيرن إلى حُجْرَةِ جايلز لِيَرى اللِّصَّ، وَلكِنَّهُ عادَ مُسْرِعًا، حَيْثُ أَقْنَعَ الآنِسَةَ روز، وَعَمَّتَها السَّيِّدَةَ مايلي بأَنْ يَصْعَدا مَعَهُ، ويُلْقِيا نَظْرَةً عَلى الصَّبِيِّ، بَعْدَ أَنْ أَكَّدَ لهُما أَنَّ حالَتَهُ لَيْسَتْ خَطيرَةً.

تَقَدَّمَ الطَّبيبُ الطَّريقَ إلى حَيْثُ يَرْقُدُ الصَّبِيُّ، وَبَدَلًا مِنْ أَنْ تَقَعَ أَعْيُنُ السَّيِّدَتَيْنِ على وَجْهِ مُجْرِمٍ قَميءٍ، رَأَتا غُلامًا بَريئًا، غارِقًا في النَّوْمِ، وَذِراعُهُ المُضَمَّدَةُ مُسْتَقِرَّةٌ عَلى صَدْرِهِ.

نَظَرَ الطَّبيبُ إلى المَريضِ دونَ أَنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ، في حينَ جَلَسَتْ روز عَلى مَقْعَدٍ بِجِوارِ الفِراشِ، وَانْحَنَتْ عَلى الصَّبِيِّ وتَحَدَّرَتْ دُموعُها الحانِيَةُ على جَبينِهِ، فَتَمَلْمَلَ الصَّبِيُّ، وَابْتَسَمَ وَهُوَ نائِمٌ، وكَأَنَّ حَنانَ السَّيِّدَةِ الصَّغيرَةِ وَعَطْفَها قَدْ أَثارا أَحْلامًا سَعيدَةً في مُخَيِّلَتِهِ.

تَعَجَّبَتِ السَّيِّدَةُ مايلي مِنَ الأَمْرِ، وَتَساءَلَتْ هَلْ مِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَكونَ هَذا الصَّبِيُّ البَريءُ لِصًّا وَمُجْرِمًا؟ وأَكَّدَ لها الطَّبيبُ بِحِكْمَتِهِ أَنَّ الجَريمَةَ مِثْلُ المَوْتِ، لا تَقْتَصِرُ عَلى العَجائِزِ والدَّميمينَ فَحَسْبُ، بل إِنَّ أَصْغَرَ البَشَرِ، وَأَجْمَلَهُمْ يُمْكِنُ أن يَسْقُطوا ضَحايا لها أَيْضًا.

وخَشِيَ الطَّبيبُ أنْ تُزْعِجَ أصْواتُهُما المَريضَ، فأشارَ عَلَيْهِما بِالتَّوَجُّهِ إلى غُرْفَةٍ أُخْرَى.

بَدا التَّأَثُّرُ الشَّديدُ واضِحًا على روز الرَّقيقَةِ، فَقالَتْ لعَمَّتِها:

«مِسْكينٌ هَذا الصَّبِيُّ! إنَّهُ بِالتَّأْكِيدِ لمْ يَذُقْ طَعْمَ الحَنانِ، لا بُدَّ أنَّ قَسْوَةَ الحَياةِ، وَشَظَفَ العَيْشِ دَفَعاهُ إلى قَبْضَةِ جَماعَةٍ مِنَ المُجْرِمينَ. أرْجوكِ يا عَمَّتي، فَكِّري في ذلكَ قَبْلَ أنْ يَسوقوهُ إلى السِّجْنِ!»

رَدَّتْ عَمَّتُها: «هَلْ تَظُنِّينَ أنِّي بِلا قَلبٍ، وأنِّي أتْرُكُهُمْ يَمَسّونَ شَعْرَةً واحِدَةً مِنْ هذا الغُلامِ البَريءِ؟ لَقَدْ أوْشَكَتْ حَياتي على نِهايَتِها، وَلعَلَّ اللهَ يَرْحَمُني إذا رَحِمْتُ الآخَرينَ. وَلكِنْ تُرى ماذا نَفْعَلُ لأجْلِهِ؟»

ووَضَعَ الطَّبيبُ يَدَيْهِ في جَيْبَيْهِ، وَأَخَذَ يَسيرُ في الغُرْفَةِ جِيئَةً وَذَهابًا، وتارَةً يَصيحُ: «وَجَدْتُ الحَلَّ.»، وَتارَةً يَقولُ: «لا، لَيْسَ هَذا بِحَلٍّ مُناسِبٍ.» حَتَّى فَرَغَتْ جَعْبَةُ أفْكارِهِ. وَمَرَّتْ ساعاتٌ، ثُمَّ أخْبَرَهُما بأنَّ الصَّبِيَّ قَدِ اسْتَعادَ وَعْيَهُ، ويُمْكِنُهُ الكَلامُ.

رَوى أوليڤر بِصَوْتِهِ الواهِنِ قِصَّتَهُ، وَحَكَى لهُمْ عَنِ العَذابِ

الَّذي ذاقَهُ، وَالآلامِ الَّتي عاناها. بَعْدَ ذلكَ تَرَكَهُمُ السَّيِّدُ لوزبيرن وَذَهَبَ لِيَتَحَدَّثَ إلى السَّيِّدِ جايلز.

قَطَّبَ الطَّبيبُ ما بَيْنَ حاجِبَيْهِ، وَتَظاهَرَ بِالغَضَبِ، وَهُوَ يَسْأَلُ السَّيِّدَ جايلز عَمَّا إذا كانَ مُسْتَعِدًّا لأنْ يُقْسِمَ أمامَ رِجالِ الشُّرْطَةِ أنَّ الصَّبِيَّ الجَريحَ هُوَ نَفْسُهُ اللِّصُّ الَّذي حاوَلَ السَّطْوَ عَلى المَنْزِلِ اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ، رَغْمَ أنَّ دُخانَ البارودِ، وَالظَّلامَ، لَمْ يُمَكِّناهُ مِنَ التَّعَرُّفِ عَلى الصَّبِيِّ تَمامًا.

ارْتَبَكَ السَّيِّدُ جايلز، وَشَعَرَ بِحَيْرَةٍ أمامَ نَظَراتِ السَّيِّدِ لوزبيرن الحادَّةِ. وَفي تِلْكَ الأثْناءِ، دُقَّ جَرَسٌ، وَتَوَقَّفَتْ عَرَبَةٌ أمامَ المنزِلِ، وَنَزَلَ مِنْها رِجالُ الشُّرْطَةِ.

وقادَهُمُ الطَّبيبُ إلى الحُجْرَةِ الَّتي يَرْقُدُ بِها أوليڤر، وَساعَدَهُ عَلى الجُلوسِ في الفِراشِ، ثُمَّ قالَ لِرِجالِ الشُّرْطَةِ:

«هذا هُوَ الصَّبِيُّ الَّذي أصيبَتْ يَدُهُ، فَحَضَرَ إلى المَنْزِلِ مُسْتَنْجِدًا، فما كانَ مِنْ هَذا الرَّجُلِ» وَأشارَ إلى جايلز: «إلّا أنْ ألقى القَبْضَ عَلَيْهِ، وَأساءَ مُعامَلَتَهُ.»

وَقَفَ السَّيِّدُ جايلز مُرْتَبِكًا، لا يَدْري ماذا يَقولُ. وَعِنْدَما سَألَهُ

الضّابِطُ ذَكَرَ أَنَّهُ ظَنَّ في بادِئِ الأمْرِ أنَّ الصَّبِيَّ هُوَ اللِّصُّ، ولكِنَّهُ ذَكَرَ بَعْدَ ذلكَ أَنَّهُ غَيْرُ مُتَأَكِّدٍ، ثُمَّ أَكَّدَ آخِرَ الأمْرِ، أنَّ الصَّبِيَّ لَيْسَ هُوَ اللِّصَّ.

وَبَعْدَ مُناقَشَةٍ طَويلةٍ، اقْتَنَعَ رِجالُ الشُّرْطَةِ بأنَّ السَّيِّدَ جايلز قَدِ ارْتَكَبَ حَماقَةً بِسوءِ ظَنِّهِ وَعَدَمِ إدْراكِهِ، وأن أوليڤر لَيْسَ لهُ شَأْنٌ بِحادِثِ السَّطْوِ، ثُمَّ غادَروا المَنْزِلَ، وَتَرَكوا أوليڤر في رِعايَةِ السَّيدةِ مايلي وَالآنِسَةِ روز، وَالطَّبيبِ العَطوفِ.

الفصل السابع عشر

أوليڤر مَعَ آل مايلي

كانَتْ حالُ أوليڤر تَدْعو إلى الرِّثاءِ؛ فإلى جانِبِ قَدَمِهِ المَكْسورَةِ الَّتي كانَتْ تُؤْلِمُهُ بِشِدَّةٍ، أدَّى تَعَرُّضُهُ للطَّقْسِ البارِدِ المُمْطِرِ إلى إصابَتِهِ بِحُمّى لازَمَتْهُ أسابيعَ عَديدَةً، حَتَّى هُزِلَ جَسَدُهُ ووَهَنَتْ قُواهُ. وَبَعْدَ فَتْرَةٍ بَدَأَ يَتَماثَلُ للشِّفاءِ شَيْئًا فَشَيْئًا، وَاسْتَطاعَ أنْ يُعَبِّرَ عَنْ شُعورِهِ العَميقِ بِالعِرْفانِ لِلسَّيِّدَتَيْنِ الكَريمَتَيْنِ، وَأَبْدى رَغْبَةً مُلِحَّةً في العَمَلِ على خِدْمَتِهِما بِمُجَرَّدِ أن يَسْتَعيدَ عافِيَتَهُ.

«يا للطِّفْلِ المِسْكينِ!» قَالَتْها روز وَهِيَ تُراقِبُ أوليڤر، في أثْناءِ مُحاولَتِهِ التَّفَوُّهَ بِكَلِماتِ الشُّكْرِ وَالثَّناءِ. ثُمَّ أخْبَرَتْهُ بأنَّ عَمَّتَها تُزْمِعُ الذَّهابَ إلى الرِّيفِ، حَيْثُ الهُدوءُ، والهواءُ الصّافي العَليلُ، وَجَمالُ الطَّبيعَةِ الَّذي سَيُساعِدُهُ على اسْتِرْدادِ صِحَّتِهِ سريعًا.

وبَعْدَ أسْبوعَيْنِ، مالَ الطَّقْسُ إلى الدِّفْءِ، وَاكْتَسَتِ الحَدائِقُ بالزُّهورِ، فَحَزَمَ الجميعُ أمْتِعَتَهُمْ، وَسافَروا ومَعَهُمْ أوليڤر إلى الرِّيفِ حَيْثُ نَزَلوا بِمَنْزِلٍ صَغيرٍ، تارِكينَ السَّيِّدَ جايلز، وَأَحَدَ الخَدَمِ لِتَوَلّي شُؤونِ المَنْزِلِ.

كانَ المَنْزِلُ الرِّيفِيُّ يَقَعُ في بُقْعَةٍ خَلّابة هادِئَةٍ، تُحيطُ بِها الخُضْرَةُ، ويَفوحُ مِنْها عَبَقُ الأزْهارِ. وَبَدأ أوليڤر الَّذي قَضى عُمْرَه وَسْطَ الصَّخَبِ وَالمُشاحَناتِ يَتَعَرَّفُ إلى عالَمٍ جَديدٍ مُفْعَمٍ بِالحُبِّ وَالحَنانِ. وهكذا نهارٌ مُمْتَلِئٌ بالدِّفْءِ، وَلَيْلٌ لا يَحْمِلُ أيَّ مَخاوِفَ



أَوْ مُعاناةٍ.

وَفي الصّباحِ كانَ أوليڤر يَتَرَدَّدُ على رَجُلٍ عجوزٍ، يَعيشُ بِالقُرْبِ مِنْ مَنْزِلِهِمْ لِيُعَلِّمَهُ القِراءَةَ وَالكِتابَةَ، ثُمَّ يَتَرَيَّضُ بَعْضَ الوَقْتِ مَعَ السَّيِّدةِ مايلي وروز، وَيَسْتَمِعُ لهُما وَهُما يتحدَّثانِ عَنِ الكُتُبِ، فَيَزْدادُ مَعْرِفَةً، وَنُضْجًا، أَوْ يَجْلِسُ بِجِوارِهِما في مَكانٍ ظَليلٍ، يَسْتَمِعُ إلى روز وَهِيَ تَقْرَأ. وَفي الظَّهيرَةِ، يَعْكُفُ أوليڤر على تَحْضيرِ دُروسِ اليَوْمِ التّالي. وَفي المَساءِ تَجْلِسُ روز إلى الأَرْغُنِ (آلَةٍ مُوسيقيَّةٍ)، وتَعْزِفُ بَعْضَ الأَلْحانِ العَذْبَةِ، أو تَشْدو بِصَوْتٍ عَذْبٍ.

وَهَكَذا مَرَّتْ ثَلاثَةُ أَشْهُرٍ مِنَ السَّعادَةِ وَالهَناءَةِ.

الفصل الثامن عشر

الشَّخْصِيَّةُ الغامِضَةُ تَظهَرُ مَرَّةً أخْرى

ذاتَ يَوْمٍ، سارَ السَّيِّدُ بامبيل - الَّذي صارَ الآنَ مَسْؤولًا عن زَوْجَةٍ، وَمَسْؤولًا أيضًا عَنِ المَلْجَأ - وَهُوَ يَشْعُرُ بِضيْقٍ شَديدٍ إِثْرَ شِجارٍ لهُ مَعَ زَوْجَتِهِ. ثُمَّ تَوَقَّفَ أمامَ أحَدِ المَقاهي، بَعْدَ أنْ شَعَرَ بِظَمَأٍ شَديدٍ، وَلمّا نَظَرَ مِنَ الزُّجاجِ الخارِجيِّ، لَمْ يَرَ سِوَى زَبونٍ واحِدٍ، وَحِينَئِذٍ بَدَأَ المَطَرُ يَنْهَمِرُ بِغَزارَةٍ، فَحَزَمَ السَّيِّدُ بامبيل أمْرَهُ، وَدَخَلَ المَقْهى.

لَمْ يَكُنْ هُناكَ سِوى رَجُلٍ وَحيدٍ، طَويلِ القامَةِ، أسْمَرِ البَشَرَةِ، يَرْتَدي ثِيابًا فَضْفاضَةً، وَيُشيرُ الغُبارُ العالِقُ بِمَلابِسِهِ إلى أنَّهُ قَدِمَ مِنْ مَكانٍ بَعيدٍ.

طَفِقَ السَّيِّدُ بامبيل يَخْتَلِسُ النَّظَرَ إلى الغَريبِ، وَفي كُلِّ مَرَّةٍ

يَنْظُرُ إليْهِ يَجِدُ الآخَرَ يُبادِلهُ النَّظَراتِ نَفْسَها. وَبَعْدَ أنِ الْتَقَتْ عُيونُهُما عِدَّةَ مَرَّاتٍ، قالَ الغَريبُ بِصَوْتٍ أجَشَّ: «ماذا تُريدُ؟»

رَدَّ السَّيِّدُ بامبيل: «لا شَيْءَ، وَلكِنِّي أعْتَقِدُ أنَّكَ السَّيِّدُ...»

ثُمَّ تَوَقَّفَ عن الكَلامِ ليَنْطِقَ الغَريبُ بِاسْمِهِ، وَلكِنَّ الغَريبَ بادَرَهُ قائِلًا: «إنَّكَ لا تَعْرِفُني، ولَكِنِّي أعرِفُكَ جَيِّدًا. ماذا تَعْمَلُ الآنَ؟»

«أعْمَلُ مُديرًا لِلْمَلْجَأ.»

ابْتَسَمَ الغَريبُ في سَعادَةٍ، وَهَزَّ رَأسَهُ؛ إذْ وَجَدَ ضالَّتَهُ المَنْشودَةَ، فَقَدْ جاءَ إلى هذا المكانِ ليَبْحَثَ عَنْ مُديرِ المَلْجَأ، سَعْيًا وراءَ بَعْضِ المَعْلوماتِ الَّتي تُهِمُّهُ. ثُمَّ نَهَضَ وَأحْكَمَ إغْلاقَ النَّافِذَةِ وَالبابِ، ثُمَّ عادَ وألقى بِجُنَيْهَين ذَهَبِيَّيْنِ على مائِدةِ السَّيِّدِ بامبيل الَّذي فَحَصهُما جَيِّدًا لِيَطْمَئِنَّ عَلى أنَّهُما ذَهَبٌ خالِصٌ. واسْتَطْرَدَ الغَريبُ:

«ارْجِعْ بِذاكِرَتِكَ لاثْنَيْ عَشَرَ عامًا مَضَتْ، في أحَدِ أيَّامِ الشِّتاءِ، في المَلْجَأ، في غُرْفَةٍ صَغيرَةٍ تَضَعُ فيها النِّساءُ البائِساتُ أطْفالَهُنَّ، وَضَعَتِ امْرَأةٌ طِفْلًا...»

قاطَعَهُ بامبيل: «كَثيراتٌ مِنْهُنَّ يَضَعْنَ أطْفالهُنَّ هُناكَ.»

«إنَّني أتَحَدَّثُ عَنْ طِفْلٍ واحِدٍ بِعَيْنِهِ حَسَنِ الطَّلْعَةِ، ذابلِ الوَجْهِ. عَمِلَ عِنْدَ أحَدِ مُتَعَهِّدي دَفْنِ المَوْتَى، ثُمَّ هَرَبَ بَعْدَ ذلكَ إلى لَنْدَن.»

انْدَفَعَ بامبيل قائِلًا: «أوليڤر! تَقْصِدُ أوليڤر تويست، هذا الصَّبِيَّ العَنيدَ الـ...»

«لا أريدُ الحَديثَ عَنْهُ، بَل عَنِ السَّيِّدةِ الَّتي مَرَّضَتْ وَالدَتَهُ أيْنَ هِيَ؟»

«لَقَدْ تُوُفِّيَتْ في الشِّتاءِ الماضي.»

نَظَرَ إليْهِ الغَريبُ بِحِدَّةٍ بَعْدَ سَماعِهِ هَذا النَّبأ، وَلَمْ يَبْدُ عَلَيْهِ ما إذا كانَ قَدْ سُرَّ بِهَذا، أو اسْتاءَ. وَنَهَضَ ليغادِرَ المَكانَ. عِنْدَئِذٍ تَذَكَّرَ السَّيِّدُ بامبيل أنَّ زَوْجَتَهُ، الَّتي كانَتْ تَعْمَلُ مُمَرِّضَةً في المَلْجأ قَبْلَ زَواجِهِ بها، تَعْرِفُ سِرًّا عَنْ هَذِهِ السَّيِّدَةِ العَجوزِ، ووَجَدَها فُرْصَةً سانِحَةً لكَسْبِ بَعْضِ المالِ؛ فأخْبَرَ الغَريبَ بأنَّ ثَمَّةَ سَيِّدَةً تَعْمَلُ بِالتَّمْريضِ كانَتْ بِمُفْرَدِها مَعَ العَجوزِ في أثْناءِ احْتِضارِها، ورُبَّما تُجيبُهُ عَمّا يَسْأَلُ.

«أَيْنَ يُمْكِنُني العُثورُ عليْها؟» قالها الغَريبُ دونَ حَيْطةٍ، وَبَدا أنَّ هذا السِّرَّ قَدْ أثارَ مَخاوِفَهُ.

«يُمْكِنُني أنْ أدُلَّكَ عليْها.»

أخْرَجَ الغَريبُ وَرَقَةً مِنْ جَيْبِهِ، وَكَتَبَ عَلَيْها عُنْوانَهُ، وناوَلَها للسَّيِّدِ بامبيل، وَأخْبَرَهُ بِأنْ يُحْضِرَ تِلكَ السَّيِّدَةَ في التّاسِعَةِ مِنْ مَساءِ اليَوْمِ التّالي، وَشَدَّدَ عَليْهِ أنْ يُبْقِيَ الأمْرَ سِرًّا، ثُمَّ غادَرَ المَكانَ.

نَظَرَ بامبيل للعُنْوانِ، فَلاحَظَ أنَّ الغَريبَ لَمْ يَتْرُكِ اسْمَهُ، فَهَرْوَلَ خَلْفَهُ قائِلًا: «انْتَظِرْ! ما هُوَ الاسْمُ الَّذي سأسْألُ عَنْهُ؟»

«أجابَ الرَّجُلُ: «مُونكْس.»، وخَرَجَ مُسْرِعًا.

الفصل التاسع عشر

لِقاءٌ في اللَّيْل

كانَتْ ليْلَةً قاتِمَةً وَمُمْطِرَةً عِنْدَما غادَرَ السَّيِّدُ بامبيل وَزَوْجَتُهُ المَنْزِلَ، وَعبَرا الشّارِعَ الرَّئيسيَّ، وَقَصَدا بَعْضَ المَنازِلِ المُتَهَدِّمَةِ.

وَسْطَ هذِهِ الأَبْنِيَةِ تَقِفُ بِنايَةٌ ضَخْمَةٌ تُشْرِفُ عَلى النَّهْرِ، كانَتْ مِنْ قَبْلُ تُسْتَخْدَمُ مَصْنَعًا، وَلَكِنَّها باتَتْ مَهْجورَةً مُنْذُ عَهْدٍ بَعيدٍ.

تَوَقَّفَ السَّيِّدُ بامبيل وَزَوْجَتُهُ، وَنَظَرَ إلى العُنْوانِ المُدَوَّنِ على الوَرَقَةِ الصَّغيرةِ، وَقالَ: «لا بُدَّ أَنَّ المَنْزِلَ في مَكانٍ ما هُنا.»

ولَمْ تَسْتَمِرَّ حَيْرَتُهُما طَويلًا فَقَدْ جاءَهُما صَوْتُ مُونكْس مِنْ أعْلى: «انْتَظِرا لحْظَةً، فَسَأحْضُرُ إلَيْكُما فوْرًا.»

وَفي لَحَظاتٍ، فُتِحَ بابٌ صَغيرٌ، وَظَهَرَ مُونكْس، وَدَعاهُما

بِعَجَلَةٍ إلى الدُّخولِ.

تَرَدَّدَتِ السَّيِّدَةُ بامبيل أَوَّلَ الأَمْرِ، ثُمَّ تَقَدَّمَتْ بِشَجاعَةٍ يَتْبَعُها زَوْجُها. وَسارَ مُونكْس أمامَهُما إلى سُلمٍ خَشَبِيٍّ أَدّى بِهِمْ إلى الطّابَق العُلوِيِّ، وَدَخَلوا ثَلاثَتُهُمْ إلى حُجْرَةٍ جانِبِيَّةٍ، ثُمَّ أَغْلَقَ مُونكْس البابَ بِعَجَلٍ، وَأَضاءَ مِصْباحًا أَلقى ضَوْءًا خافِتًا عَلى مائِدَةٍ اصْطَفَّتْ حَوْلها ثَلاثَةُ مَقاعِدَ، وَجَلَسوا جَميعًا.

قال مُونكْس بِشَغَفٍ: «وَالآنَ هاتِ ما عِنْدَكِ.»

وَبَعْدَ أَخْذٍ ورَدٍّ حَوْلَ ثَمَنِ المَعْلوماتِ الَّتي يُريدُها، أَعْطاها مُونكْس خَمْسَةً وَعِشْرينَ جُنَيْهًا ذَهَبِيًّا. وَبَدَأَتِ السَّيِّدَةُ بامبيل الحِكايَةَ:

«في أَثْناءِ احْتِضارِ السَّيِّدَةِ العَجوزِ الَّتي أَشْرَفَتْ عَلى وِلادَةِ الطِّفْلِ، كُنْتُ وَحْدي مَعَها في الحُجْرَةِ، فَحَدَّثَتْني عَنْ سَيِّدَةٍ شابَّةٍ أَنْجَبَتْ طِفْلًا مُنْذُ عِدَّةِ أَعْوامٍ، وَهُوَ الطِّفْلُ الَّذي ذَكَرْتُهُ لبامبيل اللَّيْلَةَ الماضِيَةَ، وَكانَتْ هَذِهِ السَّيِّدَةُ قَدِ اسْتَوْلَتْ عَلى شَيْءٍ يَخُصُّ الأُمَّ، وكانَتْ قد طَلَبَتْ مِنْها قَبْلَ وَفاتِها أَنْ تَحْفَظَهُ عِنْدَها مِنْ أَجْلِ الطِّفْلِ.»

سَألها مُونكْس يائِسًا: «هَلْ باعَتْ هَذا الشَّيْءَ؟ مَتى وأيْنَ، وَلِمَنْ؟»

أكْمَلتِ السَّيِّدَةُ: «بَعْدَ أنِ اعْتَرَفَتْ لي بِصُعوبَةٍ بالغَةٍ بِفَعْلَتِها، وافاها الأجَلُ.»

صاحَ مُونكْس غاضِبًا: «ماتَتْ قَبْلَ أنْ تُضيفَ شَيْئًا آخَرَ. هذا كَذِبٌ! لنْ تَخْدَعاني! لا بُدَّ أنَّها أضافَتِ المزيدَ. سأقْتُلكُما أنْتُما الاثْنَيْنِ!»

لمْ يَبْدُ على السَّيِّدَةِ بامبيل أنَّها تَأَثَّرَتْ بِغَضَبِ مُونكْس، وَقالتْ: «إنَّها لمْ تَزِدْ على ذلكَ كَلِمَةً أُخْرى، وَلكِنَّها تَشَبَّثَتْ بِثَوْبي بِيَدٍ مُغْلقَةٍ، وَلمّا رَأيْتُ أنَّها قَضَتْ نَحْبَها، فَتَحْتُ يَدَها، فَوَجَدْتُ بِها قِلادَةً.» ثُمَّ ألقَتِ السَّيِّدَةُ بامبيل كِيسًا جِلْدِيًّا عَلى المائِدَةِ، فَتَحَهُ مونكس بِيَدٍ مُرْتَعِشَةٍ.

كانَ بِالكيسِ قِلادَةٌ ذَهَبِيَّةٌ تَحْتَوي عَلى خُصْلتَيْنِ مِنَ الشَّعْرِ، وَخاتَمِ زَواجٍ ذَهَبِيٍّ.

فَحَصَ مُونكْس مُحْتَوَياتِ القِلادَةِ بِدِقَّةٍ، ثُمَّ ابْتَسَمَ ابْتِسامةً نَمَّتْ عَنْ رِضًا، وَلمّا سَألتْهُ السَّيِّدَةُ بامبيل عَمّا إذا كانَتْ هذِهِ القِلادَةُ

سَتُلحِقُ بِها ضَرَرًا، طَمْأَنَها مُونكْس قائِلًا بِصَوْتٍ هامِسٍ: «وَلا بي أَيْضًا.»

ثُمَّ دَفَعَ المِنْضَدَةَ جانِبًا، وَجَذَبَ حَلقَةً حَديدِيَّةً في أَرْضِيَّةِ الغُرْفَةِ انْفَتَحَ عَلى أَثَرِها بابٌ سِرِّيٌّ ضَخْمٌ عِنْدَ قَدَمَي السَّيِّدِ بامبيل، الَّذي رَجَعَ مَذْعورًا عِدَّةَ خُطُواتٍ إلى الوَراءِ وَهُوَ يَرْتَعِدُ.

قالَ مُونكْس: «انْظُرا إلى أَسْفَلُ ولا تَخْشَيا شَيْئًا لو كانَ في نِيَّتي أن أُسْقِطَكُما لفَعَلتُ ذلكَ بِمُنْتَهى السُّهولَةِ!»

تَقَدَّمَ الزَّوْجانِ المَذْعورانِ، وَنَظَرا إلى أَسْفَلُ؛ فَشاهَدا مِياهَ النَّهْرِ الدَّاكِنَةَ الَّتي زادَ ارْتِفاعُها بِسَبَبِ الأَمْطارِ الغَزيرَةِ، وَهِيَ تَنْدَفِعُ أَسْفَلَ الفَتْحَةِ.

أَخَذَ مُونكْس الحَقيبَةَ الجِلدِيَّةَ الصَّغيرَةَ، وَرَبَطَها إلى قِطْعَةٍ ثَقيلَةٍ مِنَ المَعْدِنِ، وَأَلْقاها في المَجْرى المائيِّ، حَيْثُ ابْتَلعَتْها المِياهُ العَميقَةُ في لَمحِ البَصَرِ.

أَغْلَقَ مُونكْس البابَ السِّرِّيَّ، وغادَرَ الزَّوْجانِ هَذا المَكانَ المُخيفَ.

الفصل العشرون

سايكس طَريحُ الفِراش

اسْتَيْقَظَ بيل سايكس في اليَوْمِ التّالي وَهُوَ يَشْعُرُ بِوَهَنٍ شَديدٍ، غَيْرَ أَنَّ المَرَضَ لَمْ يُهَذِّبْ مِنْ طِباعِهِ الشَّرِسَةِ فَأَخَذَ يَسُبُّ نانسي، وَيَلْعَنُها رَغْمَ قَلَقِها وَخَوْفِها عَلَيْهِ، مُتَجاهِلًا اللَّيالِيَ الطَّويلَةَ الَّتي سَهِرَتْها عَلَيْهِ تُمَرِّضُهُ، وَتَرْعاهُ حَتّى اسْتَعادَ عافِيَتَهُ.

وَفي هذِهِ اللحْظَةِ ظَهَرَ فاجِن عِنْدَ البابِ وَمَعَهُ جاك وَشارلي بيتس فَصاحَ بِهِ سايكس في غَضَبٍ شَديدٍ: «ما الَّذي أَتى بِكَ إِلى هُنا؟»

اقْتَرَبَ مِنْهُ فاجِن وَقالَ بِتَرَدُّدٍ: «الحَمْدُ للهِ عَلى سَلامَتِكَ يا سايكس! إِنَّكَ تَبْدو أَفْضَلَ كَثيرًا عَنْ ذي قَبْلُ.»

«أَفْضَلَ؟ لَقَدْ أَشْرَفْتُ عَلى المَوْتِ لَوْلا هذِهِ الفَتاةُ. أَمّا أَنْتَ

فَلِمْ تُكَلِّفُ نَفْسَكَ عَناءَ السُّؤالِ عَنِّيَ طَوالَ هذِهِ المُدَّةِ! لا بَأسَ، لا حاجَةَ بي إلى سُؤالِكَ، وَلكِنِّي بحاجَةٍ إلى نُقودٍ.»

ثارَ جِدالٌ شَديدٌ بَيْنَ الرَّجُلَيْنِ، وَأخيرًا أذْعَنَ اليَهودِيُّ، وَاصْطَحَبَ مَعَهُ نانسي لِيُعْطِيَها بَعْضَ المالِ لسايكس.

دَخَلَ فاجِن وبِصُحْبَتِهِ الفَتاةُ، مَنْزِلَهُ، ثُمَّ صَرَفَ الصَّبِيَّيْنِ، وَأخْرَجَ مِنْ جَيْبِه مِفْتاحًا، وَلكِنَّهُ سَرْعانَ ما دَسَّهُ ثانيةً وأنْصَتَ وهُوَ يَقولُ لنانسي: «أنْصِتي! مَنْ هذا؟»

دَخَلَ شَخْصٌ إلى الغُرْفَةِ، ولَكِنَّهُ ارْتَدَّ مُسْرِعًا إلى الوَراءِ، بَعْدَ أنِ اكْتَشَفَ وُجودَ الفَتاةِ؛ فَطَمْأنَهُ فاجِن قائِلًا: «لا عَلَيْكَ يا مُونكْس، نانسي لَيْسَتْ غَريبَةً.» ثُمَّ أوْمَأَ لَهُ بِإشارَةٍ خاصَّةٍ، واصْطَحَبَهُ وَغادَرا الغُرْفَةَ.

تَسَمَّعَتِ الفَتاةُ بِاهْتِمامٍ حَتَّى ابْتَعَدَتْ أصْواتُ وَقْعِ أقْدامِهِما، فَسارَعَتْ بِخَلعِ حِذائِها، وَصَعِدَتِ السُّلَّمَ خَلْفَهُما عَلى أطْرافِ أصابِعِها. وَبَعْدَ رُبْعِ ساعَةٍ أوْ يَزيدُ، عادَتْ مُسْرِعَةً إلى الغُرْفَةِ، وَقَبَعَتْ هادِئَةً، ثُمَّ تَبِعَها فاجِن بَعْدَ أنْ أوْصَلَ مُونكْس إلى الخارِجِ.

بَدَأ فاجِن يَعُدُّ النُّقودَ لنانسي، وَعِنْدَما قَرَّبَ المِصْباحَ مِنْ وَجْهِها لاحَظَ شُحوبًا شَديدًا عَليْها، وَلكِنَّهُ لمْ يَكْتَرِثْ لِلأمْرِ لفَرْطِ حُزْنِهِ عَلى مالِهِ.

غادَرَتِ الفَتاةُ مَنْزِلَ اليهودِيِّ، وَهِيَ شارِدَةُ الذِّهْنِ، ثُمَّ تَهالَكَتْ على عَتبَةِ أحَدِ المَنازِلِ، حَتّى تَمالكَتْ نَفْسَها، ثُمَّ انْطَلَقَتْ مُسْرِعَةً إلى مَنْزِلِ سايكس.

لمْ يَلْحَظْ سايكس اضْطِرابَ الفَتاةِ، وَشُحوبَ وَجْهِها، وَلمّا اطْمَأنَّ إلى أنَّها قَدْ أحْضَرَتِ المالَ، أطْلَقَ صَيْحَةً تَنِمُّ عَنِ الارْتِياحِ، وَعادَ إلى نَوْمِهِ الَّذي أرَّقَهُ وُصولُ الفَتاةِ.

الفصل الحادي والعشرون

نانسي في زِيارَةٍ سِرِّيَّة

لمْ يَكُنْ ثَمَّةَ ما يَشْغَلُ سايكس في اليَوْمِ التَّالي سِوى الطَّعامِ، وَالشَّرابِ، وَإنْفاقِ المالِ الَّذي أحْضَرَتْهُ نانسي، لذلكَ لمْ يَلحَظِ اضْطِرابَ الفَتاةِ، وَشُحوبَ وَجْهِها، وَلَكِنْ مَعَ دُخولِ اللَّيْلِ، بَدَأ قَلَقُ الفَتاةِ يَتَزايَدُ، حَتَّى إنَّ سايكس - رَغْمَ لَهْوِهِ الشَّديدِ - بَدَأ يَنْتَبِهُ لما اعْتَراها.

جَذَبَ سايكس الفَتاةَ نَحْوَهُ بِعُنْفٍ، وَسَألها عَنْ سَبَبِ شُحوبِها هكذا حَتّى إنَّها تَبْدو كَهَيْكَلٍ يَسيرُ عَلى قَدَمَيْنِ.

أكَّدَتْ لهُ الفَتاةُ أنَّها بِخَيْرٍ، غَيْرَ أنَّ هُناكَ بَعْضَ الأفْكارِ الَّتي تَشْغَلُ بالها، فَأمَرَها بِأنْ تَجْلِسَ بِجانِبِهِ، وَجَذَبَ وَجْهَها ناحِيَتَهُ، وَراحَ يُحَدِّقُ إلَيْها، وَأخيرًا أغْمَضَ جَفْنَيْهِ وراحَ في سُباتٍ عَميقٍ.



قامَتِ الفَتاةُ وَهِيَ تُرَدِّدُ لنَفْسِها: «أخيرًا، بَدَأ مَفْعولُ المُخَدِّرِ يَسْري، وَلكِنَّني تَأَخَّرْتُ كَثيرًا.»

وَضَعَتْ نانسي قُبَّعَتَها بِسُرْعَةٍ وَهِيَ تَتَلَفَّتُ حَوْلَها بِحَذَرٍ مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ، وَكَأَنَّها تَتَوقَّعُ أَنْ يَسْتَيْقِظَ سايكس فَجْأَةً وَيَهْوي بِقَبْضَتِهِ الفولاذِيَّةِ عَلى كَتِفِها. ورَغْمَ رَهْبَةِ الفَتاةِ مِنْهُ فإنَّها كانَتْ تُكِنُّ لهُ كُلَّ الحُبِّ. وانْحَنَتِ الفَتاةُ عَلى فِراشِهِ، وَقَبَّلَتْهُ في وَجْنَتِهِ، ثُمَّ غادَرَتِ المَنْزِلَ في هُدوءٍ شَديدٍ.

دَقَّتِ السّاعَةُ العاشِرَةَ مَساءً، فازْدادَ اضْطِرابُ نانسي، وَأَسْرَعَتِ

السَّيْرَ غَيْرَ عابِئَةٍ بالمارَّةِ أَوْ بِصَيْحاتِ اسْتِنْكارِهِمْ عِنْدما بَدَأَتْ تَدْفَعُهُمْ بِمَنْكِبَيْها، حَتَّى وَصَلتْ إلى أَحَدِ أَزْقى أَحْياءِ المَدينَةِ، ثُمَّ قَصَدَتْ فُنْدُقًا للعائِلاتِ يَقَعُ على ناصِيَةِ الشَّارِعِ.

دَخَلتْ نانسي الفُنْدُقَ، وَسَأَلتْ عَنِ الآنِسَةِ مايلي، وَبَعْدَ جِدالٍ عَنيفٍ مَعَ عامِلي الفُنْدُقِ الذينَ رَفَضوا لها السَّماحَ بِالدُّخولِ نَظَرًا لِهَيْئَتِها المُزْرِيَةِ ومَلابِسِها الرَّثَّةِ، قادَها عامِلُ الفُنْدُقِ إلى غُرْفَةٍ صَغيرةٍ، وَأَمَرَها بِأَنْ تَنْتَظِرَ. وَبَعْدَ لحَظاتٍ، أَقْبَلتِ الآنِسَةُ مايلي وَبِصَوْتٍ حانٍ عَطوفٍ سَأَلتْها عَمَّا تَبْغيهِ.

أَحَسَّتْ نانسي بِعَطْفِ الآنِسَةِ مايلي، وَرِقَّتِها البالغَةِ حَتَّى إِنَّها بَكَتْ تَأَثُّرًا وهي تَقولُ لها: «آه يا سَيِّدَتي، لوْ أَنَّ في العالم كَثيراتٍ مِثْلكِ، ما كانَ مِثْلي على الإطْلاقِ!»

هَدَّأَتْ روز مِنَ اضْطرابِ الفَتاةِ، وَعَرَضَتْ مُساعَدَتَها. وَبَعْدَ أن اسْتعادَتْ نانسي رَباطَةَ جَأْشِها، وَتَمالكَتْ نَفْسَها، وتَأَكَّدَتْ مِنْ أَنَّ بابَ الحُجْرَةِ مُغْلَقٌ، قالتْ لروز: «إِنَّني سَأَضَعُ حَياتي وَحَياةَ آخَرينَ بَيْنَ يَدَيْكِ. إِنَّني الفَتاةُ الَّتي أَعادَتْ أوليفر إلى العَجوزِ فاجِن مَرَّةً أُخْرى يَوْمَ أَنْ خَرَجَ مِنْ مَنْزِلِ بنتونفيل. أنا الفَتاةُ التَّعيسَةُ الَّتي حَكى لكِ أوليفر عَنْها، وَالتي تَعيشُ وَسْطَ اللصوصِ، وَلَمْ تَذُقْ

قَطُّ طَعْمَ الحَياةِ الشَّريفَةِ. اِحْمَدي اللهَ يا سَيِّدَتي أَنَّ لكِ أُسْرَةً تَوَلَّتْ رِعايَتَكِ وَأَنْتِ طِفْلَةٌ، وَسَهرَتْ على حِمايَتِكِ، فَلَمْ تُجَرِّبي الحِرْمانَ، وَالبَرْدَ، وَالجوعَ الَّذي عانَيْتُ مِنْهُ مُذْ كُنْتُ في المَهْدِ.»

سَأَلَتْ نانسي الآنِسَةَ مايلي عَمَّا إذا كانَتْ تَعْرِفُ شَخْصًا يُدْعى مُونكْس، وَلكِنَّها أجابَتْ بِأَنَّها لَمْ تَسْمَعْ بهذا الاسْمِ مُطْلَقًا.

«وَلكِنَّهُ يَعْرِفُكِ وَيَعْرِفُ مَكانَكِ، كَما أَنَّني عَرَفْتُ طَريقَكِ مِنْهُ.» ثُمَّ بَدَأَتْ نانسي تَحْكي حِكايَتَها مِنَ البِدايَةِ.

«مُنْذُ فَتْرَةٍ، وَبَعْدَ أن اسْتَقَرَّ أوليڤر بمَنْزلكِ بَعْدَ مُحاوَلَةِ السَّطْوِ بِيَوْمٍ واحِدٍ، سَمِعْتُ مُحادَثَةً بَيْنَ المَدْعُوِّ مُونكْس وفاجِن في اللَّيْلِ، وَعَرَفْتُ أَنَّ مُونكْس قَدْ رَأى أوليڤر مُصادَفَةً مَعَ اثْنَيْنِ مِنْ خَدَمِكِ، وَعَرَفَ أَنَّهُ الصَّبِيُّ الَّذي يَبْحَثُ عَنْهُ لِسَبَبٍ لا أَعْرِفُهُ. ووَعَدَهُ فاجِن بِإِعْطائِهِ مَبْلَغًا مِنَ المالِ في حالَةِ ما إذا اسْتَطاعَ أَنْ يُعيدَ أوليڤر إلى قَبْضَتِهِ ثانيةً، وَمَبْلَغًا أكْبَرَ إذا ما جَعَلَ مِنْهُ لِصًّا. وَلكِنِّي لَمْ أَسْتَطِعْ سَماعَ المَزيدِ؛ حَيْثُ اضْطرِرْتُ للارْتِدادِ ثانيةً بَعْدَ أَنْ لَمَحَ ظِلِّي عَلى الحائِطِ، وَلَمْ أَرَ مُونكْس مُنْذُ اللَّيْلَةِ الماضِيَةِ. وبالأَمْسِ حَضَرَ مونكْس وَسَمِعْتُهُ يَقولُ: «إنَّ الشَّاهِدَ الوَحيدَ على شَخْصِيَّةِ الصَّبِيِّ يَرْقُدُ حالِيًّا في قاعِ النَّهْرِ، وَأَنَّ السَّيِّدَةَ الَّتي عَرَفَتْ

هذا السِّرَّ تَرْقُدُ الآنَ في قَبْرِها.» وَذَكَرَ أَنَّه يَتَمَنَّى التَّخَلُّصَ مِنَ الصَّبِيِّ دونَ أَنْ يُعَرِّضَ حَياتَهُ للخَطَرِ، وَلكِنَّهُ ما دامَ لَنْ يَسْتَطيعَ ذلكَ، فَسَوْفَ يَتَرَبَّصُ للصَّبِيِّ في كُلِّ مُناسَبَةٍ ليُلْحِقَ بِهِ الضَّرَرَ. وَالغَريبُ أَنَّهُ قالَ لفاجِن: «رَغْمَ كَوْنِكَ يَهوديًّا فإنَّكَ لَمْ تَضَعْ في حَياتِكَ عَقَباتٍ أمامَ أَيِّ شَخْصٍ مِثْلما أَضَعُ أنا أمامَ أَخي أوليڤر!»

رَدَّتْ روز بِدَهْشَةٍ: «أخوه!»

«هذِهِ هِيَ كَلِماتُهُ. وَالآنَ يَجِبُ أَنْ أَعُودَ.»

حاوَلَتْ روز إِقْناعَ الفتاةِ بِالبَقاءِ حَيْثُ إِنَّها تَعْرِفُ شَخْصًا يُمْكِنُهُ مُساعَدَتُها، وَإِبْعادُها عَنْ رِفاقِ السُّوءِ، وَلكِنَّ نانسي صَمَّمَتْ عَلى العَوْدَةِ وَوَضَّحَتْ لها أَنَّ بَيْنَ هؤلاءِ الأَشْرارِ شَخْصًا تُكِنُّ لَهُ حُبًّا شَديدًا، وَلا تَسْتَطيعُ التَّخَلِّيَ عَنْهُ رَغْمَ ما تَلقاهُ مِنْهُ مِنْ مُعامَلَةٍ فَظَّةٍ جافَّةٍ.

سَأَلَتْها روز عَمّا يُمْكِنُ أَنْ تَفْعَلَهُ لِتُنْقِذَ الصَّبِيَّ، فَأَشارَتْ عَلَيْها نانسي بِأَنْ تَحْكيَ لِشَخْصٍ تَثِقُ به، وتَسْأَلهُ النُّصْحَ وَالمَشُورَةَ. ثُمَّ تَحَرَّكَتْ في اتِّجاهِ البابِ، وَقَبْلَ أَنْ تَهُمَّ بِفَتْحِهِ، سَأَلَتْها روز عَنْ كَيْفيَّةِ العُثورِ عَلَيْها إذا ما دَعَتِ الضَّرورَةُ لِذَلكَ، فَقَالَتْ نانسي

وَهِيَ تُغادِرُ الحُجْرَةَ:

«سأكونُ على جِسْرِ لندن مَساءَ كُلِّ أحَدٍ مِنَ الحادِيَةَ عَشْرَةَ مَساءً وَحَتَّى مُنْتَصَفِ اللَيْلِ.. إذا كُنْتُ عَلى قَيْدِ الحَياةِ!»

الفصل الثاني والعشرون

السيد جريمْوِيج

حَضَرَ آلُ مايلي إلى لندن لقَضاءِ ثَلاثَةِ أيّامٍ، قَبْلَ أنْ يَتَوَجَّهوا لِمِنْطَقَةٍ ساحِليَّةٍ قَصِيَّةٍ لتَمْضِيَةِ عِدَّةِ أسابيعَ.

بَدَتْ روز في حَيْرَةٍ مِنْ أمْرِها، فَهِيَ تُريدُ كَشْفَ الغُموضِ الَّذي أحاطَ بَمَوْلِدِ أوليڤر مِنْ ناحِيَةٍ، وَهِيَ حريصَةٌ أيْضًا على عَدَمِ إفْشاءِ السِّرِّ الَّذي ائتَمَنَتْها عَلَيْهِ الفَتاةُ البائِسَةُ مِنْ ناحِيَةٍ أُخْرى.

وَبَيْنَما هِيَ في حَيْرَتِها اقْتَحَمَ أوليڤر الغُرْفَةَ في حالَةٍ مِنَ الانْفِعالِ الشَّديدِ، وَأخْبَرَ روز بِأَنَّهُ شاهَدَ السَّيِّدَ براوِنْلو الَّذي أَشْفَقَ عَلَيْهِ، وَأحْسَنَ مُعامَلَتَهُ، وَهُوَ يُغادِرُ إحْدَى العَرَباتِ. وأضافَ أوليڤر وَالدُّموعُ تَنْهَمِرُ مِنْ عَيْنَيْهِ مِنْ فَرْطِ سَعادَتِهِ بأَنَّهُ اسْتَطاعَ أنْ يَعْرِفَ عُنْوانَهُ، ثُمَّ أعْطاها قُصاصَةً صَغيرَةً دَوَّنَ فيها العُنْوانَ.

قَرَّرَتْ روز أَنْ تَنْتَهِزَ هذِهِ المُصادَفَةَ، وَطَلَبَتْ إلى أوليڤر أن يُسْرِعَ في اسْتِدْعاءِ عَرَبَةٍ، وَيَسْتَعِدَّ لاصْطِحابِها إلى منزلِ السَّيِّدِ براوِنْلو.

وَفي الحالِ كانا في طَريقِهِما إلى المَنْزِلِ. وَعِنْدَما بَلغاهُ اسْتَبْقَتْ روز أوليڤر في العَرَبَةِ، وادَّعَتْ بِأَنَّها سَتُمَهِّدُ المَوْضوعَ للسَّيِّد براوِنْلو أَوَّلًا حتى لا يكونَ ثَمَّةَ مَفاجَأَةٌ عِنْدَ رُؤْيَتِهِ أوليڤر، ثُمَّ دَخَلَتْ إلى المَنْزِلِ، وَطَلَبَتْ رُؤْيَةَ سَيِّدِهِ، لأَمْرٍ عاجِلٍ.

صَعِدَتْ روز إلى الطَّابَقِ العُلوِيِّ حَيْثُ كانَ السَّيِّدُ براوِنْلو يَتَجاذَبُ أطْرافَ الحَديثِ مَعَ صَديقِهِ العَنيدِ السَّيِّدِ جريمْويج، فَذَكَرَتْ لهُ أَنَّهُ أَسْبَغَ حَنانَهُ وعَطْفَهُ ذاتَ يَوْمٍ على صَبِيٍّ صَغيرٍ، وَأَنَّها واثِقَةٌ بِأَنَّهُ سَيَسْعَدُ بِسَماعِهِ أَخْبارًا عَنْهُ.

أَلقَى السَّيِّدُ جريمْويج بِكِتابٍ ضَخْمٍ كانَ يَتَصَفَّحُهُ عَلى المائِدَةِ فأَحْدَثَ دَوِيًّا شَديدًا، وَغاصَ في مَقْعَدِهِ، وَبَدَتْ عَلَيْهِ أَماراتُ الدَّهْشَةِ. وَبِالطَّبْعِ لَمْ تَكُنْ دَهْشَةُ السَّيِّدِ براوِنْلو بِأَقَلَّ مِنْ دَهْشَةِ صَديقِهِ، وَلكِنَّهُ لَمْ يُعَبِّرْ عَنْها بِهذا الأَسْلوبِ الغَريبِ.

دَنا السَّيِّدُ براوِنْلو مِنْ روز، وَقالَ لها: «أرْجوكِ دَعي حَناني جانِبًا، وَقَدِّمي لي دَليلًا يَجْعَلني أُغَيِّرُ الانْطِباعَ السَّيِّئَ الَّذي تَرَسَّبَ

في ذِهْني عَنْ هذا الطِّفْلِ البائِسِ.»

قاطَعَهُ السَّيِّدُ جريْموِيج مُؤَكِّدًا لهُ أنَّ أوليڤر صَبِيٌّ سَيِّئٌ، وَلكِنَّ روز أخْبَرَتْهُمَا بِأنَّ الصَّبِيَّ مِنْ أصْلٍ نَبيلٍ، وذو قَلبٍ طَيِّبٍ، وَمَشاعِرَ أنْضَرَ مِنْ سِنِّهِ.

وَسَرَدَتْ روز ما حَدَثَ لأوليڤر مُنْذُ أنْ غادَرَ مَنْزِلَ السَّيِّدِ براوِنْلو، وَأكَّدَتْ لهُ أنَّ الشَّيْءَ الوَحيدَ الَّذي كانَ يُحْزِنُهُ خِلالَ الأشْهُرِ الأخيرَةِ، هُوَ حَنينُهُ إلى السَّيِّدِ الكَريمِ الَّذي أكْرَمَه. ثُمَّ أخْبَرَتْهُ بأنَّ أوليڤر يَنْتَظِرُ في عَرَبَةٍ أمامَ بابِ المَنْزِلِ.

ما كادَ السَّيِّدُ براوِنْلو يَسْمَعُ ذلكَ، حَتَّى انْدَفَعَ خارِجًا، وَعادَ وبِصُحْبَتِهِ أوليڤر.

قالَ السَّيِّدُ براوِنْلو لأوليڤر: «ثَمَّةَ شَخْصٌ يَتوقُ لِرُؤْيَتِكَ، وَلَمْ يَنْسَكَ طَوالَ هذِهِ المُدَّةِ.» ثُمَّ أمَرَ بِاسْتِدْعاءِ السَّيِّدَةِ بدوين، الَّتي حَضَرَتْ مُهَرْوِلَةً وَانْتَظَرَتْ بِجِوارِ بابِ الحُجْرَةِ في انْتِظارِ أنْ يأذَنَ لَها سَيِّدُها بِالدُّخولِ.

قالَ لها السَّيِّد براوِنْلو مُداعِبًا: «إنَّ نَظَرَكِ يَزْدادُ وَهَنًا مَعَ مُرورِ الأيَّامِ. ضَعي نَظَّارَتَكِ، وَأنْتِ تَعْرِفينَ الباقي.»

لَمْ يَنْتَظِرْ أوليڤر حتَّى تَضَعَ السَّيِّدَةُ بدوين نَظّارَتَها، وانْدَفَعَ نَحْوَها، وَارْتَمى بَيْنَ ذِراعَيْها.

تَرَكَ السَّيِّدُ براوِنْلو أوليڤر مَعَ السَّيِّدَةِ بِدْوين وَتَوَجَّهَ مَعَ روز إلى حُجْرَةٍ مُجاوِرَةٍ، حَيْثُ أطْلَعَتْهُ عَلى ما دارَ في لقائِها مَعَ نانسي، ووَعَدَ بِدِراسَةِ الأمْرِ. ومن ثَمَّ عادَتْ روز ومعها أوليڤر إلى منْزِلها.

الفصل الثالث والعشرون

نانسي تَفي بِوَعْدِها

جَلَسَ سايكس وفاجِن يَتَجاذَبانِ أطْرافَ الحَديثِ يَوْمَ الأَحَدِ وَأمَامَهُما نانسي شارِدَةَ الذِّهْنِ. وَعِنْدَما دقَّت الساعَةُ مُعْلِنَةً الحادِيَةَ عَشْرَةَ مَساءً، هَبَّتِ الفَتاةُ، ووَضَعت قُبَّعَتَها على عَجَلٍ، وَهَمَّتْ بِمُغادَرَةِ المَكانِ.

سَألها سايكس عَنْ وُجْهَتِها في هذِهِ السَّاعَةِ المُتأخِّرَةِ من الليْلِ، فَتَعَلَّلَتِ الفَتاةُ بِأنَّها تَوَدُّ استِنْشاقَ بَعْضِ نَسَماتِ الهَواءِ النَّقِيَّةِ.

لمْ يَقْتَنِعْ سايكس بِهذا التَّعْليلِ، وَأصرَّ على عَدَم مُغادَرَتِها المكانَ، وأوْصَدَ الباب بِالمِفْتاحِ. فانْتابَتِ الفَتاةَ حالَةٌ هِسْتيرِيَّةٌ، وَأخَذَتْ تَصْرُخُ وَتَبْكي إلى أنْ أشارَتْ دَقّاتُ السَّاعَةِ إلى الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ، عندئذٍ تَمَلكَها اليَأسُ، وَكَفَّتْ عَنِ النَّحيبِ. وَتَرَكَها

سايكس وَحْدَها، وَعادَ إلى فاجِن وَهُوَ يُتَمْتِمُ: «يا لها مِنْ فَتاةٍ غَريبَةٍ!»

رَدَّدَ فاجِن: «نَعَمْ، فَتاةٌ غَريبَةٌ!» وَلكِنَّهُ كانَ يُفَكِّرُ في أَمْرِها.

غادَرَ فاجِن مَنْزِلَ سايكس، وَهو مُطْرِقٌ يُفَكِّرُ في أَمْرِ الفَتاةِ، وإصْرارِها الشَّديدِ عَلى الخُروجِ في هذِهِ اللَّيْلَةِ، وفَي هذِهِ السّاعَةِ بالذّاتِ. وَهَداهُ تَفْكيرُهُ إلى أَنَّهُ لا بُدَّ أَنْ تكونَ نانسي قَدْ ضاقَتْ ذَرْعًا بِسُوءِ طِباعِ سايكس، فاتَّخَذَتْ صَديقًا جَديدًا. وَعَزَمَ عَلى مُراقَبَتِها وَمَعْرِفَةِ هذا الصَّديقِ الجَديدِ؛ فَلَعَلَّهُ يَسْتَفيدُ مِنْهُ بِصُورَةٍ أَوْ أُخرى.

مَرَّ أَسْبوعٌ عَلى هذِهِ الأَحْداثِ، وَجاءَ يَوْمُ الأَحَدِ وَفي المَساءِ تَسَلَّلَتْ نانسي في السّاعَةِ الحادِيَةَ عَشْرَةَ إلّا رُبْعًا، وَتَوَجَّهَتْ إلى جِسْرِ لندن دونَ أَنْ تَشْعُرَ بِأَنَّ ثَمَّةَ شَخْصًا يُراقِبُها. وَبَعْدَ عِدَّةِ دَقائِقَ ظَهَرَتْ روز، وَالسَّيِّدُ براوِنْلو، فَاتَّجَهَتْ نانسي إلَيْهِما، وَأَشارَتْ عَلَيْهِما بِالتَّوَجُّهِ إلى أَسْفَلِ الجِسْرِ حَيْثُ إنَّهُ بَعيدٌ عَنِ الأَنْظارِ.

تَسَمَّعَ الشَّخْصُ المُكَلَّفُ بِمُراقَبَةِ الفَتاةِ كَلامَها، فَحَثَّ الخُطَى، وَسَبَقَهُمْ إلى أَسْفَلِ الجِسْرِ حَيْثُ قَبَعَ ساكِنًا، وَكَتَمَ أَنْفاسَهُ حَتَّى لا يَشْعُروا بِوُجودِهِ.

كَشَفَتْ نانسي للآنِسَةِ عَنِ القَلَقِ الَّذي يَعْتَريها، وَاعْتَذَرَتْ لها عَنْ عَدَمِ قُدومِها الأحَدَ الماضِيَ، فَهَدَّأَ السَّيِّدُ براونْلو مِنْ رَوْعِها، وَأخْبَرَها بِأنَّهُ قَدْ عَلِمَ بِالأمْرِ، وَأنَّهُ تَشاوَرَ مَعَ بَعْضِ الأصْدِقاءِ، ووَجَدَ أنَّ الحَلَّ الأمْثَلَ هُوَ أنْ يُجْبِرَ الشَّخْصَ المَدْعُوَّ مُونكْس عَلى الكَشْفِ عَنِ السِّرِّ الَّذي يُخْفيهِ، وَسَيَتَوَلّى هُوَ مُعالَجَةَ المَوْضوعِ.

كانَ أشَدَّ ما يُقْلِقُ الفَتاةَ مَصيرُ فاجِن وسايكس والآخرين، وَلكِنْ بَعْدَ أنْ حَصَلتْ على وَعْدٍ مِنَ السَّيِّدِ براونْلو بِأنَّهُمْ سَيكونونَ بِمَأمَن بَعْدَ الإيقاع بِمُونكْس، بَدَأتْ نانسي تُدْلي بِما تَعْرِفُهُ، بِصَوْتٍ هامِسٍ. وَصَفَتِ المَقْهى الَّذي يَتَرَدَّدُ عَلَيْه مُونكْس، وأفْضَلَ زاوِيَةٍ يُمْكِنُ مُراقَبَتُهُ مِنْها دونَ أنْ يَلْحَظَ أو يَتَنَبَّهَ، كَما حَدَّدَتِ اليَوْمَ وَالسّاعَةَ الَّتي يَتَرَدَّدُ فِيهما عَلى المَكانِ، ثُمَّ أدْلَتْ نانسي بِأوْصافِ مُونكْس بِكُلِّ دِقَّةٍ: «هو شابٌّ يافِعٌ، قَويُّ البُنْيان، ذو عَيْنَيْنِ غائِرَتَيْنِ، ووَجهٍ داكِنِ البَشَرةِ، وَلهُ لازِمَةٌ تَميِّزُهُ؛ فَقَد اعْتادَ النَّظَرَ مِنْ فَوْقِ كَتِفَيْهِ يَمْنَةً وَيَسْرَةً، كَما أنَّ ثَمَّةَ عَلامَةً مُلازِمةً لهُ لا تُفارِقُهُ أبدًا؛ إذْ يُوجَدُ عَلى رَقَبَتِهِ...»

قاطَعَها السَّيِّدُ براونْلو قائِلًا: «نَدَبَةٌ حَمْراءُ كَبيرةٌ تُشْبِهُ الحَرْقَ؟»



عَقَّبَتْ نانسي قائِلَةً: «نَعَمْ. هَلْ تَعْرِفُهُ؟»

رَدَّ السَّيِّدُ بِاقْتِضاب: «أعْتَقِدُ ذَلِكَ. ولكِنَّ الأوْصافَ تَتَشابَهُ.»

أرادَ السَّيِّدُ براوِنْلو أنْ يُكافِئَ نانسي على ما أسْدَتْهُ مِنْ صَنيعٍ؛ فَعَرَضَ عَلَيْها أنْ يُوَفِّرَ لها مَكانًا آمِنًا داخِلَ إنجلترا أوْ خارِجَهَا. وَلكِنَّها رَفَضَتْ رَفْضًا قاطِعًا، مُؤَكِّدَةً أنَّ المُكافَأَةَ الحقيقِيَّةَ الَّتي يُمْكِنُ أنْ يُقَدِّمَها لها هِيَ السَّماحُ لها بالعَوْدَةِ.

غادَرَ السَّيِّدُ براوِنْلو والآنِسَةُ روز عائِدَيْنِ، عَلى حينَ تَهاوَتْ نانسي عَلى سُلَّمِ الجِسْرِ، وَطَفِقَتْ تَنْتَحِبُ بِمَرارَةٍ. وَبَعْدَ هُنَيْهَةٍ، هَبَّتْ واقِفَةً، وَهَبَطتِ السُّلَّمَ، وسَلَكَتِ الطَّريقَ إلى المَنْزِلِ.

تَتَبَّعَ الجاسوس دونَ حَراكٍ ما دار بَيْنَ الثَّلاثَةِ. وَبَعْدَ أنِ اطْمَأنَّ إلى أنَّ الجَميعَ قَدْ غادَروا المكانَ، هَبَطَ السُّلَّمَ، وَأطْلَقَ لساقَيْهِ الرّيحَ عائِدًا إلى فاجِن بما يَحْمِلُ مِنْ أنْباءٍ.

الفصل الرابع والعشرون

عَواقِبُ وَخيمَة

جَلسَ فاجِن في مَنْزِلِهِ يُراقِبُ جاسوسَهُ النَّائِمَ، بِوَجْهٍ شاحِبٍ، وَعَيْنَيْنِ حَمْراوَيْنِ. شَعَرَ اليَهوديُّ بِخَيْبَةِ أمَلٍ شَديدَةٍ؛ إذ كانَ يَأمُلُ في الإيقاعِ بنانسي وَصَديقِها الجَديدِ، وَلكِنْ تَأتي الرِّياحُ بِما لا تَشْتَهي السُّفُنُ. وَشَعَرَ بِمَقْتٍ عَميقٍ تُجاهَ الفَتاةِ؛ كَيْفَ تَجرَّأتْ وَتَعاوَنَتْ مَعَ غُرَباءَ عَلَيْهِمْ، لا بُدَّ أنَّ أمْرَهُمْ سَيَفْتَضِحُ لا مَحالةَ، وَعِنْدَما وَصَلَ لِهَذِهِ الفِكْرَةِ، اعْتَراهُ رُعْبٌ شَديدٌ. وَلَمْ يَنْتَشِلْهُ مِنْ هذِهِ الأفْكارِ سِوى قُدومِ بيل سايكس الَّذي دَخَلَ وَأعْطى لفاجِن لِفافَةً كان يَحْمِلها، وَطَلَبَ إليه أنْ يَحْفَظَها جَيِّدًا حَيْثُ إنَّهُ قَدْ تَجَشَّمَ عَناءً كَبيرًا في سَبيلِ الحُصولِ عَلَيْها. فَتَناوَلها فاجِن ووَضَعَها في خِزانَتِهِ، وطَفِقَ يَتَأمَّلُ سايكس دونَ أنْ يَنْطِقَ بِبِنْتِ شَفَةٍ (بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ).

مَرَّتِ اللَّحَظاتُ ثَقيلةً، وَأخيرًا قالَ فاجِن لسايكس بأنَّ لدَيْهِ شَيئًا يَوَدُّ أنْ يُطْلِعَهُ عَليْهِ، ثُمَّ انْحَنى عَلى الجاسوسِ وَأيْقَظَهُ، وَطَلَبَ إلَيْهِ أنْ يُعيدَ عَلى مَسامِعِهِ ما قالهُ عَنْ نانسي، وَما كانَ مِنْ أمْرِها مَعَ الغَريبَيْنِ عِنْدَ الجِسْرِ.

حَكى الجاسوسُ كُلَّ شَيْءٍ كما حَدَثَ، وَذَكَرَ أنَّ نانسي اعْتَذَرَتْ عَنْ عَدَمِ مَجيئِها الأحَدَ الماضِيَ لأنَّ بيل سايكس أبْقاها بِالمَنْزِلِ.

اسْتَشاطَ سايكس غَضَبًا، وَدَفَعَ فاجِن جانِبًا، وَانْدَفَعَ صَوْبَ البابِ، فَناداهُ فاجِن، وَنَصَحَهُ بأنْ يَتريَّثَ في تَعامُلِهِ مَعَ الفَتاةِ.

قَصَدَ سايكس إلى مَنْزِلِهِ وَقَدْ سَوَّلتْ لهُ نَفسُهُ أمْرًا؛ فَدَخَلَ الغُرْفَةَ بِهُدوءٍ، وأوْصَدَ البابَ بِالمِفْتاحِ، ووَضَعَ المِنْضَدَةَ خَلْفَهُ.

كانَتْ نانسي مُسْتَغْرِقَةً في النَّوْمِ، فأيْقَظَها بِعُنْفٍ، وَجَذَبَها مِنَ الفِراشِ. تَساءَلَتِ الفَتاةُ وَهِيَ بيْنَ اليَقَظَةِ والنَّوْمِ عَنْ سَبَبِ غَضَبِهِ هَكَذا، وَعَنِ الذَّنْبِ الَّذي اقْتَرَفَتْهُ حَتَّى تَسْتَحِقَّ مِنْهُ هذِهِ المُعامَلَةَ.

أجابَ سايكس: «أنْتِ تَعرِفينَ ما الَّذي ارْتَكَبْتِهِ. لقَدْ كانَ هُناكَ مَنْ يُراقِبُكِ، وَسَمِعَ كُلَّ كَلِمَةٍ تَفَوَّهْتِ بِها أيَّتُها الخائِنَةُ!»

تَوَسَّلتْ إليْهِ نانسي ضارِعَةً: «أرْجوكَ، يا بيل، تَرَيَّثْ قَبْلَ أنْ تَسْفِكَ دَمي. فكِّرْ في كُلِّ ما فَعَلتُهُ مِنْ أجْلِكَ. فكِّرْ في حُبِّي وَإخْلاصِي لَكَ.»

لمْ يُصْغِ سايكس، وأخْرَجَ مُسَدَّسَهُ مِنْ جَيْبِهِ، وَلكِنَّ سَوْرَةَ الغَضَبِ لمْ تُنْسِه خُطورَةَ أنْ يُطْلِقَ النَّارَ عَليْها، فَهَوَى بِهِ بِكُلِّ قُوَّتِهِ عَلى رَأسِها فَتَدَفَّقَتِ الدِّماءُ غزيرةً على وَجْهَ الفَتاةِ، وَلكِنَّها تَمالكَتْ، وَجَثَتْ عَلى رُكْبَتَيْها، ثُمَّ خَرَّتْ صَريعةً.

تَراجَعَ سايكس إلى الخَلفِ، ثُمَّ تَناوَلَ هِراوَةً غَليظَةً، وَهَوَى بِها عَلى الفَتاةِ.

الفصل الخامس والعشرون

هُروبُ سايكس

كانَتْ جريمَةً بَشِعَةً لمْ تَشْهَدْ لندن مِثْلها مِنْ قَبْلُ. وأشْرَقَت الشَّمْسُ في اليَوْمِ التَّالي، وَأضاءَتِ المدينَةَ المكتَظَّةَ بِأشِعَّتِها الذَّهَبِيَّةِ الدّافِئَةِ. وتَسَلَّلَ الضَّوْءُ إلى الحُجْرَةِ الَّتي تَرْقُدُ بِها الفَتاةُ. حاوَلَ سايكس أنْ يُسْدِلَ السّتائِرَ ليَحولَ دُون نَفاذِ الضَّوْءِ، وَلكِنَّ أشِعَّةَ الشَّمْسِ تَسَلَّلَتْ رَغْمًا عَنْهُ لتُظْهِرَ مَدَى بَشاعَةِ جَريمَتِهِ.

لمْ يُحَرِّكْ سايكس ساكِنًا مِنْ هَوْلِ ما تَمَلَّكَهُ من رُعْبٍ شَديدٍ. وَخَرَجَتْ أنَّةٌ خافِتَةٌ عَنِ الفَتاةِ، وَتَحَرَّكَتْ يَدُها حَرَكَةً خَفيفَةً، فَتَناوَلَ الهِراوَةَ، وَهَوَى عَليْها عِدَّةَ مَرَّاتٍ حَتَّى خَمَدَتْ أنْفاسُها، ثُمَّ غَطَّى الجُثَّةَ.

أشْعَلَ سايكس نارًا، وَألقَى بِالهِراوةِ، ثُمَّ اغْتَسَلَ وَنَفَضَ

مَلابِسَهُ.

كانَتِ الدِّماءُ تُغَطِّي أَرْضِيَّةَ الحُجْرَةِ، كَمَا عَلِقَ بَعْضُها بِأَقْدام الكَلْبِ، فَغَسَلها المُجْرِمُ، وَأَزالَ آثارَها.

لَمْ يَسْتَطِعْ سايكس أَنْ يُديرَ ظَهْرَهُ للجُثَّةِ المُمَدَّدَةِ، وَعِنْدَما اسْتَعَدَّ لِلْهُروبِ، سارَ بِظَهْرِهِ نَحْوَ البابِ، وَسَحَبَ الكَلبَ بِحَذَرٍ حَتَّى لا تَحْمِلَ أَرْجُلهُ دَليلًا عَلى جَريمَتِهِ الشَّنْعاءِ، ثُمَّ أَغْلَقَ البابَ بِهُدوءٍ، وَأَخَذَ المِفْتاحَ، وَغادَرَ المَنْزِلَ.

عَبَرَ سايكس الشّارِعَ، ونَظَرَ إِلى المَنْزِلَ مِنَ الخارِجِ حَتَّى يَتَأَكَّدَ أَنَّ كُلَّ شَيّءٍ يَبْدو طَبيعيًّا، وَبَعْدَ أَنِ اطْمَأَنَّ، أَطْلَقَ صَفيرًا لِلكَلْبِ، وانْطَلَقَ مُسْرِعًا.

سارَ سايكس طَويلًا حَتَّى كَلَّتْ قَدَماهُ، فانْعَطَفَ إِلى إِحْدى القُرى، وَدَخَلَ مَقْهًى مُتواضِعًا. وأَفْسَحَ لهُ الجالِسونَ مَكانًا بَيْنَهُم، وَلكِنَّهُ اخْتارَ رُكْنًا مُنْزَوِيًا، وَجَلَسَ فيهِ بِصُحْبَةِ كَلْبِهِ.

انْهَمَكَ الجَميعُ في حَديثٍ عامٍّ حَوْلَ المَزارِعِ المُجاوِرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ ما يَسْتَرْعي الانْتِباهَ، أَوْ يَدْعو سايكس إِلى الانْزِعاجِ، فَدَفَعَ حِسابَهُ، وَراحَ في النَّوْمِ. غَيْرَ أَنَّهُ اسْتَيْقَظَ على ضَجَّةٍ وَجَلَبَةٍ

أحْدَثَها زَبونٌ جَديدٌ.

دَخَلَ أَحَدُ الباعَةِ الجائِلينَ الذينَ اعْتادوا التَّجْوالَ مِنْ مَدينَةٍ لِمَدينَةٍ، وَمِنْ قَرْيَةٍ لأُخْرى، يَحْمِلونَ شَفَراتِ الحِلاقَةِ، والعُطورَ الرَّخيصَةَ، وعَقاقيرَ الحيواناتِ وَغَيْرَ ذَلِكَ مِنَ الأشْياءِ الَّتي يَحْتاجُ إليها القَرَوِيُّونَ.

فَرَغَ البائِعُ مِنْ تَناوُلِ طَعامِهِ، ثُمَّ فَتَحَ صُنْدوقَهُ لَعَلَّهُ يَجِدُ مُشْتَرِيًا في المَقْهى. وأشارَ رَجُلٌ مِنَ الجالسينَ إلى عَدَدٍ مِنَ المُكَعَّباتِ داخِلَ الصُّنْدوقِ وَسَأَلَ عَنْ فائِدَتِهِ.

وأخْرَجَ البائِعُ أحَدَ هَذِهِ المُكَعَّباتِ، وَقالَ إنَّ مَفْعولَهُ أكِيدٌ في إزالَةِ جَميعِ أنْواعِ البُقَعِ وَالقاذوراتِ.

وتَقَدَّمَ رَجُلانِ، وابْتاعا بَعْضَها، وَتَرَدَّدَ الباقونَ، فَواصَلَ البائِعُ التَّرويجَ لِبِضاعَتِهِ قائِلًا: «المُكَعَّبُ السِّحْرِيُّ الَّذي يُزيلُ جَميعَ أنْواعِ بُقَعِ الفاكِهَةِ، وبُقَعِ الطِّلاءِ، وبُقَعِ الدِّماءِ. وانْظُروا البُقَعَ. ثَمَّةَ بُقْعَةٌ فَوْقَ قُبَّعَةِ هذا السَّيِّدِ، سأزيلها في ثَوانٍ.» وَتَوَجَّهَ سَريعًا نَحْوَ سايكس، والتَقَطَ القُبَّعَةَ، وَبَدَأَ في إزالَةِ البُقْعَةِ غَيْرَ عابِئٍ بِغَضَبِ سايكس، وقال: «إنَّها بُقْعَةٌ داكِنَةٌ، في حَجْمِ قِطْعَةِ نُقودٍ مِنْ فِئَةِ

خَمْسَةِ القُروشِ، وَلكِنَّها سَميكَةٌ...»

انْدَفَعَ سايكس صَوْبَ البائِعِ، وَخَطَفَ قُبَّعَتَهُ، وَانْطَلَقَ خارِجَ المَقْهى.

سارَ القاتِلُ مَسافَةً طَويلَةً، وكانَ يَنْظُرُ خَلفَهُ مِنْ وَقْتٍ لآخَرَ ولَمْ يَكُنْ هُناكَ مَنْ يَتْبَعُهُ؛ إذْ رُبَّما اعْتَبَرَهُ الجالسونَ أَحَدَ السُّكارَى الثَّمِلين. ثُمَّ عَرَّجَ عَلى أَحَدِ الشَّوارِعِ، فَشاهَدَ عَرَبَةَ البَريدِ أمامَ مَكْتَبِ البَريدِ، فَعَبَرَ الشارِعَ، وَأَرْهَفَ سَمْعَهُ.

سَلَّمَ المسْؤولُ عَنِ المَكْتَبِ حَقيبَةَ الخِطاباتِ للحارِسِ، وَسَأَلَهُ عَنِ الأَخْبارِ، فَأَجابَ الحارِسُ: «إنَّ كُلَّ شَيْءٍ على ما يُرامُ، فَقَط ارْتَفَعَ سِعْرُ الذُّرَةِ قَليلًا، ووَقَعَتْ جَريمَةُ قَتْلٍ!»

أَطَلَّ رَجُلٌ كانَ بالقَريَةَ مِنَ النَّافِذَةِ، وَقالَ مُؤَكِّدًا: «نَعَمْ، لقَدْ وَقَعَتْ جَريمَةٌ مُرَوِّعَةٌ لسَيِّدَةٍ. إنَّهُمْ يَقولونَ...»

لَمْ يَنْتَظِرْ سايكس لِيَسْمَعَ المَزيدَ، وانْطَلَقَ بَعيدًا عَنِ القَرْيَةِ. وكانَ يَشْعُرُ بِرُعْبٍ شَديدٍ يَمْلِكُ عَلَيْهِ حَواسَّهُ. وصارَ يَتَخَيَّلُ أَنَّ جُثَّةَ الفَتاةِ تَتْبَعُهُ أَيْنَما ذَهَبَ.. يَرى ظِلَّها عَلى الأَرْضِ، وَيَسْمَعُ حَفيفَ ثَوْبِها عَلى الطَّريقِ.

وجَمَعَ القاتِلُ ما تبَقّى لدَيْهِ مِنْ شَجاعَةٍ، وَقَرَّرَ أنْ يَلتَفِتَ، ويُواجِهَ شَبَحَ الفَتاةِ، وَلكِنْ ما إن اسْتدَارَ حَتَّى وَقَفَ شَعْرُ رَأسِهِ، وَجَمَدَتِ الدِّماءُ في عُروقِهِ إذْ هُيّئَ لهُ أنَّ شَبَحَ الفَتاةِ اسْتَدارَ، وَأصْبَحَ خَلْفَهُ.

مَضَى سايكس، وَدَخَلَ أحَدَ الأكْواخِ المَتناثِرَةِ في الحُقولِ لَعَلَّهُ يَجِدُ بَعْضَ السَّكينَةِ. وكانَتْ قَدَماهُ تُؤلمانِهِ، وَالرُّؤى المُخيفَةُ تَتَراقَصُ أمامَهُ، ولا سَبيلَ أمامَهُ.

وبِمُضِيِّ الوَقْتِ ازْدادَتْ حالَتُهُ سُوءًا، وأصْبَحَ يَرى عَيْنَي الفَتاةِ الجامِدَتَيْنِ تُلاحِقانِهِ في كُلِّ مَكانٍ. وأغْلَقَ عَيْنَيْهِ فَرآهُمَا، واسْتَدارَ فَرآهُمَا، واسْتَلقَى عَلى ظَهْرِهِ فَرآهُما، وتَرَكَ الكوخَ وَانْدَفَعَ في الحُقولِ، فَشَعَرَ بِخيالِ الفَتاةِ يُطارِدُهُ، فَعادَ إلى الكوخِ مَرَّةً أخْرى، وافْتَرَشَ الأرْضَ وهو يَرْتَجِفُ، وحَبّاتُ العَرَقِ البارِدَةُ تَتَصَبَّبُ مِنْ كُلِّ مَسامٍّ جَسَدِهِ. وأخيرًا قَرَّرَ العَوْدَةَ إلى لندن، فَهُناكَ سَيَجِدُ مَكانًا آمِنًا يَخْتَبِئُ فيهِ، وَسَيَحْصُلُ عَلى بَعْضِ المالِ مِنْ فاجِن، ثُمَّ يُغادِرُ البِلادَ إلى فَرَنْسا.

واطْمَأنَّ سايكس لهذِهِ الفِكْرَةِ، وَعَلى الفَوْرِ شَرَعَ في تَنْفيذِها، وسَلَكَ بَعْضَ الأزِقَّةِ المَهْجورَةِ، وَبَدَأ رِحْلتَهُ عائِدًا إلى لندن.

فَكَّرَ القاتِلُ في الكَلْبِ، الَّذي رُبَّما يَتَسَبَّبُ في اعْتِقالِهِ، فَعَزَمَ عَلى التَّخَلُّصِ مِنْهُ بإغْراقِه. وَطَفِقَ يَبْحَثُ عَنْ أَحَدِ المُسْتَنْقَعاتِ حَتَّى وَجَدَهُ، ثُمَّ التَقَطَ حَجَرًا ثَقيلًا، وَرَبَطَهُ في مِنْديلِهِ، وواصَلَ سَيْرَهُ.

نَظَرَ الكَلْبُ إلى وَجْهِ سَيِّدِهِ، وَكَأَنَّما حَدَّسَ بِغَريزَةِ الحيَوانِ ما انْتَواهُ سَيِّدُهُ. ولمّا بَلَغا حافَةَ المُسْتَنْقَعِ، تَوَقَّفَ سايكس، واسْتَدْعى الكَلْبَ.

تَقَدَّمَ الحَيَوانُ بِبُطْءٍ، وَعِنْدَما رَأى سايكس يَنْحَني لِيَرْبُطَ المِنْديلَ بِرَقَبَتِهِ، أَطْلَقَ نُباحًا خَفيضًا، وابْتَعَدَ عَنْهُ.

صَرَخَ سايكس فيه: «ماذا بِكَ؟ عُدْ إلى هُنا!»

هَزَّ الكَلبُ ذَيْلَهُ دونَ أَنْ يَتَحَرَّكَ، ثُمَّ تَقَدَّمَ مُتَثاقِلًا نَحْوَ سَيِّدِهِ، ثُمَّ ارْتَدَّ فَجْأَةً إلى الوَراءِ، واسْتَدارَ على عَقِبَيْهِ، وَأَخَذَ يَعْدو بأَقْصى سُرْعَتِهِ.

جَلَسَ سايكس يَنْتَظِرُ عَوْدَةَ كَلبِهِ دونَ جَدْوَى وَلمّا كَلَّ، قَرَّرَ اسْتِئنافَ رِحْلَتِهِ وَحْدَهُ.

الفصل السادس والعشرون

مُونكْس يُقابل السَّيِّدَ براوِنْلو

كانَ الظَّلامُ قَدْ بَدَأ يَحِلُّ، عِنْدَما هَبَطَ السَّيِّدُ براوِنْلو مِنْ عَرَبَةٍ أمامَ بابِ مَنْزِلِهِ، وَطَرَقَ البابَ بِهُدوءٍ، وَعِنْدما فُتِحَ، نَزَلَ رَجُلٌ قَوِيٌّ مِنَ العَرَبَةِ، ووَقَفَ بِجوارِها، ثُمَّ هَبَطَ شَخْصٌ آخَرُ، ووَقَفَ في الجانِبِ المُقابِلِ، وَبَعْدَ إيماءَةٍ مِنَ السَّيِّد براوِنْلو ساعَدَ الرَّجُلانِ رَجُلًا ثالثًا عَلى الهُبوطِ، وَأَسْرَعا بِهِ إلى داخِلِ المَنْزِلِ. كانَ هذا الرَّجُلُ هُوَ مُونكْس.

قادَ السَّيِّدُ براوِنْلو الطَّريقَ إلى حُجْرَةٍ خَلفِيَّةٍ، ثُمَّ أَصْدَرَ تَعْليماتٍ لِلرَّجُلَيْنِ بِأَنْ يُلقِيا بِمُونكْس فيها، وَيُسْرِعا في طَلَبِ الشُّرْطَةِ؛ إذا ما أَبْدى مُقاوَمَةً، أَوْ رَفَضَ الامْتِثالَ لأوامِرِهِ.

أَبْدَى مُونكْس استِياءَهُ مِنَ الطَّريقَةِ الَّتي اخْتَطَفَهُ بِها الرَّجُلانِ مِنَ

الطَّرِيقِ، وَبِحَزْمٍ شَدِيدٍ أَوْضَحَ لهُ السَّيِّدُ براوِنْلو أَنَّ أَمَامُه خِيارَيْنِ لا ثالثَ لهُما؛ إمَّا أَنْ يُغادِرَ المَنْزِلَ، وفي هذِهِ الحالةِ سَيُغادِرُه إلى مَقَرِّ الشُّرْطَةِ، وإمّا أَنْ يَمْتَثِلَ لأوامِرِهِ، وَيَجْلِسَ هادِئًا في الغُرْفَةِ.

وَأمامَ إصْرارِ السَّيِّد براوِنْلو، لَمْ يَكُنْ أَمامَ مُونكْس سِوى أَنْ يَسيرَ بِهدوءٍ، وَيَجْلِسَ عَلى مَقْعدٍ في وَسَطِ الغُرْفةِ.

طَلَبَ براوِنْلو إلى الرَّجُليْنِ أن يُغادِرا الغُرْفَةَ ويُوصِدا البابَ مِنَ الخارِجِ، وَألا يَدْخُلا إلّا إذا سَمَحَ لهُما بذلك.

بَدَأَ مُونكْس بالحَديثِ قائِلًا: «هَلْ هذِهِ مُعامَلَةٌ لائِقَةٌ مِنْ أعَزِّ أصْدِقاءِ وَالِدي؟»

أجابَ السَّيِّد براوِنْلو: «أجَل. لأنَّني أعَزُّ أصْدِقاءِ وَالِدِكَ، وَلأنَّهُ تَلا صَلواتِهِ مَعي فَوْقَ قَبْرِ أُخْتِهِ الوَحيدَةِ، في نَفْسِ الصَّباحِ الَّذي كانَتْ سَتُصْبِحُ فِيه زَوْجَتي. نَعَمْ لهذا السَّبَبِ يا إدوارد ليفورد أعامِلُكَ بلطْفٍ حَتَّى الآنَ، وَحَمْدًا للهِ أنَّكَ غَيَّرْتَ اسْمَكَ حَتَّى لا تُلْحِقَ بِهِ العارَ!»

رَدَّ مُونكْس دُونَ اكْتِراثٍ: «وَالآنَ مَاذا تُريدُ مِنِّي؟»

«تَعْلَمَ أنَّ لكَ أخًا ما كِدْتُ أهْمِسُ بِاسْمِهِ في أذُنَيْكَ في

الطَّريقِ حَتَّى ارْتعَدَتْ فَرائِصُكَ، وجِئْتَ مَعي صاغِرًا.»

«لا، لا إخْوَةَ لي. إنَّني وَحيدٌ.»

«أعْرِفُ أنَّكَ الابْنُ الوَحيدُ مِنَ الزّيجَةِ التَّعِسَةِ الَّتي أُجْبِرَ عَلَيْها أبوكَ، وَعاشَ في عَذابٍ حَتَّى انْفَصَلا في نِهايَةِ الأمْرِ. ثُمَّ تَعَرَّفَ وَالِدُكَ مُنْذُ خَمْسَةَ عَشَرَ عامًا بِمَجْموعَةٍ أخْرى مِنَ الأصْدِقاءِ، وكانَ عُمْرُكَ آنَذاكَ لا يَزيدُ عَلى أحَدَ عَشَرَ عامًا. في حينِ كانَ وَالِدُكَ يَبْلُغُ واحِدًا وثَلاثينَ عامًا، تَعَرَّفَ إلى ضابِطٍ في البَحْرِيَّةِ، تُوُفِّيَتْ زَوْجَتُهُ، تارِكَةً لهُ ابْنَةً جَميلةً في التّاسِعَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها، وَقَعَ وَالِدُكَ في حُبِّها، وَكانَتْ ثَمَرَةُ هَذا الحُبِّ المُحَرَّمِ أخاكَ أوليڤر.»

تَمَلْمَلَ مُونكْس في مَقْعَدِهِ وَقالَ: «إنَّ قِصَّتَكَ مُسْهَبَةٌ، يا سَيِّدُ براوِنْلو.»

«نَعَمْ، وَلكِنَّها حَقيقِيَّة. وَفي النِّهايَةِ تُوُفِّيَ أحَدُ أقارِبِ وَالِدِكِ الأثْرياءِ، تارِكًا لهُ ثَرْوَةً لا بَأسَ بِها، وَكانَ مِنَ الضَّروريِّ أنْ يَتَوَجَّهَ وَالِدُكَ إلى روما حَيْثُ تُوُفِّيَ قَريبُهُ، وكانَت معه والدَتُكَ وأنت بِالطَّبْعِ. وَهُناكَ أصابَهُ المَرَضُ، ثُمَّ تُوُفِّيَ في اليَوْمِ التّالي، وَلَمْ يَتْرُكْ

أَيَّةَ وَصِيَّةٍ، لِذا فَقَدْ آلتِ الثَّرْوَةُ كُلها إليْكَ، وإلى وَالدَتِكَ.»

وَعِنْدَ ذِكْرِ ذَلكَ، ظَهَرَتْ أماراتُ الرَّاحَةِ المُفاجِئَةِ عَلى وَجْهِ مُونكْس، وَمَسَحَ وَجْهَهُ المُحْتَقِنَ بِيَدَيْهِ، وتَنَفَّسَ الصُّعَداءَ.

واصَلَ براوِنْلو حَديثَهُ: «قَبْلَ أنْ يُسافِرَ والِدُكَ إلى الخارِجِ، جاءَ إليَّ، وَمَعَهُ صورَةٌ رَسَمَهَا بِيَدِهِ لهذِهِ الفَتاةِ المسْكِينَةِ، وَكانَ في غايَةِ الحُزْنِ وَالتَّأَثُّرِ، وَتَحَدَّثَ عَنِ الخَطيئَةِ الَّتي ارْتكَبَها، وأَخْبَرني بأَنَّهُ يَعْتَزِمُ بَيْعَ الأَمْلاكِ، وَتَخْصيصَ جُزْءٍ مِنْها لكَ ولأُمِّكَ، ثُمَّ يُغادِرُ البِلادَ، وَلا يَعودُ إليْها أبدًا. إلّا أَنَّهُ احْتَفَظَ بِسِرِّ المَوْلودِ، ووَعَدَ بالكِتابَةِ إليَّ شارِحًا ليَ الأمْرَ بِرُمَّتِهِ وَلكِنْ- للأَسَفِ- كانَتْ هذِهِ هِيَ آخِرَ مَرَّةٍ أراهُ فيها، وَلمْ أتلَقَّ مِنْهُ أَيَّةَ خِطاباتٍ، وَلمْ أَسْمَعْ عَنْهُ مَرَّةً أُخْرى.»

صَمَتَ السَّيِّدُ براوِنْلو هُنَيْهَةً، وَكَأَنَّما يجْتَرُّ ذِكْرياتِهِ، ثُمَّ واصَلَ حَديثَهُ: «عَزَمْتُ على البَحْثِ عَنِ الفَتاةِ المِسْكينَةِ والعُثورِ عَليْها، وَأنْ أوَفِّرَ لها مَأوًى، وَلكِنّي لمْ أَعْثُرْ على أسْرَتِها، وَعَلمْتُ أنَّها انْتَقَلتْ إلى مِنْطَقَةٍ أخْرى، وَلكِنَّ المُصادَفَةَ المَحْضَةَ هِيَ الَّتي ألقَتْ بِأخيكَ البائِسِ في طَريقي، فانْتَشَلْتُهُ مِنْ حَياةِ البُؤْسِ والضَّياعِ وَالجَريمَةِ. في بادِئِ الأمْرِ هالني الشَّبَهُ الكَبيرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الصُّورةِ

الَّتي حَدَّثْتُكَ عَنْها، ولا يَنْقُصُكَ الاطِّلاعُ عَلى حادِثَةِ اخْتِطافِهِ؛ لأَنَّكَ تَعْرِفُها جَيِّدًا!»

حاوَلَ مُونكْس الإنْكارَ، فَأَخْبَرَهُ السَّيِّدُ براوِنْلو بأَنَّهُ لا فائِدَةَ مِنَ الإنْكارِ، لأَنَّهُ يَعْرِفُ المَزيدَ. وَأَرْدَفَ قائِلًا: «لَقَدْ فَقَدْتُ الصَّبِيَّ، وَفَشِلَتْ جَميعُ مُحاوَلاتي لاسْتِعادَتِهِ. وَبَعْدَ أَنْ عَلِمْتُ بِوَفاةِ وَالِدَتِكَ، أَيْقَنْتُ أَنَّهُ ما مِنْ إنْسانٍ غَيْرِكَ يُمْكِنُهُ حَلُّ هذا اللُّغْزِ؛ فَبَحَثْتُ عَنْكَ في طول لندن وعرضها، وَاكْتَشَفْتُ أَنَّكَ تُصاحِبُ سَفْلَةَ المُجْرِمينَ، وكادَتْ جُهودي تَذْهَبُ سُدًى، لَوْلا أَنِّي وَجَدْتُكَ أَخيرًا.»

«حَسَنٌ، ها أَنْتَ ذا قَدْ وَجَدْتَني؛ فَهَلْ تَسْتَطيعُ إِثْباتَ هذِهِ التُّهَم ضِدِّي لِمُجَرَّدِ وُجودِ شَبَهٍ بَيْنَ طِفْلٍ بائِسٍ، وَصورَةٍ لِسَيِّدَةٍ رُسِمَتْ بِشَكْلٍ رَديءٍ؟ إِنَّكَ لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ حتى أَنَّ ثَمَّةَ طِفْلًا قَدْ وُلِدَ.»

رَدَّ براوِنْلو: «نَعَمْ، لَمْ أَكُنْ أَعْلَمُ مِنْ قَبْلُ، وَلكِنِّي وَقَفْتُ عَلى الأَمْرِ كُلِّهِ في الأُسْبوعَيْنِ الماضِيَيْن. لَقَدْ كانَتْ ثَمَّةَ وَصِيَّةٌ، إلّا أَنَّ والِدَتَكَ تَخَلَّصَتْ مِنْها، وائْتَمَنَتْكَ على السِّرِّ قَبْلَ وَفاتِها. وتُشيرُ هذِهِ الوَصِيَّةُ إلى وُجودِ طِفْلٍ، كَما تَنُصُّ عَلى أَنْ يَرِثَ

جَميعَ أَمْلاكِ وَالِدِهِ إذا ما شَبَّ رَجُلًا صالِحًا، وَلكِنْ إذا ما شَبَّ غَيْرَ ذلكَ مِثْلكَ؛ يُوَزَّعُ الميراثُ مُناصَفَةً بَيْنَكُما. لقَدْ وُلِدَ هذا الطِّفْلُ، وَالْتَقَيْتُهُ مُصادَفَةً؛ فَأَثارَ الشَّبَهُ الكَبيرُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَالِدِكَ شُكوكي للوَهْلَةِ الأولى. ثُمَّ تَوَجَّهْتُ إلى مَحَلِّ مِيلادِهِ، حَيْثُ الدَّليلُ عَلى نَسَبِهِ، وَلكنَّكَ تَخَلَّصْتَ مِنْهُ كَما صَرَّحْتَ لِفاجِنِ اليَهودِيِّ. إنَّ الدَّليلَ الوَحيدَ عَلى شَخْصِيَّةِ الطِّفْلِ يَرْقُدُ الآنَ في قاعِ النَّهْرِ أَيُّها الجَبانُ القَذِرُ! وَالآنَ هَلْ تَجْرُؤ عَلى تَكْذيبي؟ تَكَلَّمْ!»

«لا، لا!»

«إنَّني أَعْلَمُ تَمامًا بما دارَ بَيْنَكَ وَبَيْنَ اليَهودِيِّ. وَلتَعْلَمْ أَنَّ جَريمَةَ قَتْلٍ قَدْ وَقَعَتْ، وَأَنَّكَ مَسْؤولٌ عَنْها أَخْلاقِيًّا، إنْ لَمْ تَكُنْ مُتَوَرِّطًا فيها بالفِعْلِ.»

قاطَعَهُ مُونكْس: «لا، لا! أنا لا أَعْلَمُ شَيْئًا عَنْ هذِهِ الجَريمَةِ، لقَدْ كُنْتُ في طَريقي للوُقُوفِ عَلى الحَقيقَةِ حينَ قَبَضْتَ عَلَيَّ. لقَدْ ظَنَنْتُ أَنَّ الأَمْرَ لا يَعْدو أن يَكونَ مُشادَّةً عادِيَّةً.»

«كَشْفُ سِرِّكَ كانَ السَّبَبَ وَراءَ هذِهِ الجَريمَةِ. وَالآنَ هَلْ سَتُوَقِّعُ على أَوْراقٍ بِها الحَقيقَةُ كامِلةً، وَتُرَدِّدُها أَمامَ الشُّهودِ؟»

«سأَفْعَلُ ما تُريدُ.»

«سَتُعَوِّضُ الصَّبِيَّ البَريءَ عَنِ الضَّررِ الَّذي أصابَهُ، وَتُنَفِّذُ وَصِيَّةَ وَالدِكَ، وَبَعْدَ ذلكَ فَلتَذْهَبْ حَيْثُ تَشاءُ.»

أَخَذَ مُونكْس يَسيرُ في الغُرْفَةِ جِيئَةً وَذَهابًا، وَهُوَ في حالةٍ من الخَوْفِ وَالمقْتِ الشَّديدَيْنِ. وَفَجْأَةً انْدَفَعَ رَجُلٌ داخِلَ الحُجْرَةِ، وَبَدا عليْهِ الانْفِعالُ الشَّديدُ، وَأَخْبَرَ السَّيِّدَ براوِنْلو بأَنَّهُ قَدْ تَمَّ العُثورُ عَلى كَلبِ القاتِلِ، وَأَنَّ الشُّرْطَةَ بِصَدَدِ العُثورِ عَلى القاتِلِ نَفْسِهِ، وَأَكَّدَتْ لهُ أنَّ ليْسَ أمامَهُ أدْنى فُرْصَةٍ للهَرَبِ.

سَأَلَ صاحِبُ المَنْزِلِ عَنْ أَخْبارِ اليَهودِيِّ، فَعَلِمَ أَنَّهُ لا يَزالُ حُرًّا طَلِيقًا، غَيْرَ أنَّ الشُّرْطَةَ على يَقينٍ مِنَ الإيقاعِ بِهِ. ثُمَّ التَفَتَ إلى مُونكْس ليَرَى ما إذا كانَ قد اتَّخَذَ قرارًا أو لا.

سأله مُونكْس: «هَلْ سَتَحْفَظُ سِرّي؟»

أجابَ براوِنْلو: «أجَلْ، إذا ما وَقَّعْتَ عَلى أوْراقٍ بها الحَقيقَةُ كامِلةً أمامَ الشُّهودِ، وأعَدْتَ لأوليڤر تويست أمْوالَهُ وَمُمْتَلكاتِهِ الَّتي اسْتَوْلَيْتَ عَلَيْها بِدونِ وَجْهِ حَقٍّ.»

وَبَعْدَ أنْ وَقَّعَ مُونكْس على الأوْراقِ، أطْلَقَ السَّيِّدُ براوِنْلو سَراحَهُ.

الفصل السابع والعشرون

نِهاية سايكس

تَقَعُ جَزيرَةُ يَعْقُوب في نَهْرِ التِّيمز، بِالقُرْبِ مِنْ أَفْقَرِ أَحْياءِ لندن، وَأَقْذَرِها. وَتُحيطُ بِها قَناةٌ مَليئَةٌ بِالطَّمْي، يَبْلغُ عُمْقُها نَحْوَ مِتْرَيْنِ أَوْ ثَلاثَةِ أَمْتارٍ عِنْدَ المَدِّ.

تَضُمُّ هذِهِ الجَزيرَةُ مَجْموعَةً مِنَ المَنازِلِ المُهَدَّمَةِ، تَقِفُ بِلا سُطوحٍ، جُدْرانُها مُتداعِيَةٌ، تُغَطّيها القاذوراتُ مِنْ كُلِّ جانِبٍ، وَلا يوجَدُ مُلّاكٌ لهذِهِ المَنازِل، لذا فَمِنَ المُمْكِنِ أَنْ يَقْطُنَها أَيُّ شَخْصٍ إذا كانَ يَمْلِكُ الشَّجاعَةَ الكافِيَةَ للعَيْشِ على هذِهِ الجَزيرَةِ المَهْجورَةِ، أَوْ لَدَيْهِ سَبَبٌ قَوِيٌّ لِيُفَضِّلَ الإقامَةَ في هذا المَكانِ المُوحِشِ. وبِالفِعْلِ كانَتْ هذِهِ الجَزيرَةُ مَرْتَعًا لِلُّصوصِ، والخارِجينَ عَلى القانونِ.

وفي حُجْرَةٍ عُلوِيَّةٍ بِأحَدَ هذِهِ المَنازِلِ، جَلسَ ثَلاثَةُ أشْقياءَ صامِتينَ، وَقَدْ بَدا التَّجَهُّمُ عَلى وُجوهِهِمْ، مِنْ بَيْنِهِمْ توني كراكيت وَاثْنانِ مِنَ اللُّصوصِ رُفَقاءِ السُّوءِ.

بَدَأ الرِّجالُ يَتَحَدَّثونَ عَنْ فاجِن الَّذي وَقَعَ في قَبْضَةِ الشُّرْطَةِ. وَفَجْأةً سَمِعوا طَرْقًا عَنيفًا عَلى بابِ المَنْزِلِ.

أطَلَّ توني كراكيت مِنَ النَّافِذَةِ، ثُمَّ ارتَدَّ بِوَجْهٍ شاحِبٍ يرتَعِدُ خَوْفًا، فَعَرَفَ أصْدِقاؤهُ مَنِ الطَّارِقُ دونَ أنْ يَنْطِقَ بِبِنْتِ شَفَةٍ.

تَناوَلَ توني شَمْعَةً مُضاءَةً، وَهَبَطَ لِيُحْضِرَ الزّائِرَ، وَبَعْدَ قَليلٍ عادَ، وَبِصُحْبَتِهِ رَجُلٌ غَطَّى أسْفَلَ وَجْهِهِ بِمِنْديلٍ كَبيرٍ، في حينَ اخْتَفى الجُزْءُ الأعْلى تَحْتَ قُبَّعَتِهِ، فَلَمْ يَكَدْ يَبينُ مِنْ وَجْهِهِ شِيْءٌ. وَحينَ كَشَفَ النِّقابَ عَنْ وَجْهِهِ، لاحَتْ عَيْنا سايكس الغائِرتانِ، ولِحْيَتُهُ الَّتي يَبْدو كأنْ لمْ تُحْلَقْ مُنْذُ ثَلاثَةِ أيَّامٍ.

جَذَبَ سايكس أحَدَ المَقاعِدِ، وَجَلَسَ، وطَفِقَ يُنَقِّلُ نَظَرَهُ مِنْ شَخْصٍ إلى آخَرَ دونَ أنْ يَنْطِقَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ. وَأخيرًا سَألَهُمْ عَمَّا إذا كانَتِ الأنْباءُ الَّتي وَرَدَتْ في صُحُفِ المَساءِ عَنِ اعْتِقالِ فاجِن صَحيحَةً، أمْ كاذِبَةً؛ فَأكَّدوا لهُ صِحَّةَ النَّبأ. ثُمَّ تناهَتْ إلى أسْماعِهِمْ طَرَقاتٌ أخْرَى عَلى البابِ، فَذَهَبَ توني، وَعادَ، وَمَعَهُ

تشارلي بيتس الَّذي ما إن رَأى سايكس حتَّى تَغَيَّرَتْ مَلامِحُ وَجْهِهِ، وارتَدَّ إلى الوَراءِ.

سألهُ سايكس: «تشارلي! ألا تَعْرِفُني؟»

رَدَّ تشارلي في فَزَعٍ وَهُوَ يَتَراجَعُ إلى الخَلفِ: «لا تَقْتَرِبْ مِنِّي أَيُّها الوَحْشُ! اشْهَدوا ثَلاثَتُكُمْ أَنّني لا أَخْشاهُ، وَإذا ما جاءوا للقَبْضِ عَلَيْهِ فَسأساعِدُهُمْ عَلى ذَلكَ.»

وَفَجْأَةً قَفزَ على سايكس القوِيِّ، وطَرَحَهُ أرْضًا؛ فَقَدْ أَخَذَهُ عَلى غِرَّةٍ.

لمْ يَتَدَخَّلِ الثَّلاثَةُ في الصِّراعِ الدائِرِ بَيْنَ الاثْنَيْنِ، وَبَعْدَ فَتْرَةٍ وَجيزَةٍ مِنْ قِتالٍ غَيْرِ مُتكافِئٍ، صَرَعَ سايكس خَصْمَهُ وجثا بِرُكْبَتَيْه فَوْقَ رَقَبَةِ الصَّبِيِّ.

تَدَخَّل كراكيت، وَخَلَّصَ الصَّبِيَّ مِنْ بَيْنِ بَراثِنِ سايكس، وَأشارَ بِفَزَعٍ صَوْبَ النّافِذَةِ حَيْثُ كانَتْ تَلمَعُ أَضْواءٌ على البُعْدِ، وَتَناهى إلى أَسْماعِهِمْ أصواتٌ صاخِبَةٌ، وَخُطُواتٌ تَعْبُرُ الجِسْرَ الخَشَبِيَّ ثُمَّ سَمِعُوا طَرْقًا عَنيفًا على البابِ، وَهَمْهَمَةً مِنْ أصواتٍ مُحْتَشِدَةٍ غاضِبَةٍ.

صَرَخَ الصَّبِيُّ: «النَّجْدَةَ! القاتِلُ هُنا! حطِّموا البابَ!»

جَذَبَ سايكس الصَّبِيَّ، وَحَبَسَهُ داخِلَ إحْدى الغُرَفِ، وأوْصَدَ البابَ عَليْهِ بِالمِزْلاجِ.

سَأَلَ سايكس توني عَنْ مَدى صَلابَةِ البابِ السُّفْلِيِّ وَصُمودِهِ تَحْتَ وَقْعِ الجُموعِ الهادِرَةِ، ولمّا اطْمَأَنَّ، ذَهَبَ إلى النّافِذَةِ، وَنَظَرَ إلى أسْفَلُ.

ما إنْ أطَلَّ وَجْهُ القاتِلِ، حَتَّى تَعالتْ أصْواتُ الجُموعِ، بَعْضُها يُطالبُ بإشعالِ النِّيرانِ في المنْزِلِ، وَبَعْضُها يُطالبُ رِجال الشُّرْطَةِ بإطْلاقِ النَّارِ على القاتِلِ. ثُمَّ صاحَ رَجُلٌ يَمْتَطي جَوادًا: «عِشْرونَ جُنَيْهًا مَكافَأَةً لِمَنْ يُحْضِرُ سُلَّمًا.»

حَدَثَ هَرْجٌ وَمَرْجٌ، وَانْدَفَعَتِ الجُموعُ كُلٌّ في اتّجاهٍ، يُحاوِلُ إحْضارَ سُلَّمٍ.

ارْتَدَّ سايكس إلى داخِلِ الحُجْرَةِ مُنْفَعِلًا، وَصَرَخَ في زُمَلائِهِ:

«المدُّ، لَقَدْ بَدَأَ المدُّ. يُمْكِنُني القَفْزُ في القَناةِ مِنَ الخَلْفِ.

أسْرِعوا وأعْطوني حَبْلًا طَويلًا وإلّا قَتَلْتُكُمْ أنْتُم الثَّلاثَةَ، ثُمَّ

أَنْتَحِرُ!»

أشارَ الرِّجالُ الرَّعاديدُ (الجُبَناءُ) إلى مَكانِ الحِبالِ، فانْتَقى سايكس أطْوَلَها وَأَقْواها، وَتَوَجَّهَ إلى الجُزْءِ الخَلْفِيِّ مِنَ المَنْزِلِ.

كانَتْ جَميعُ نَوافِذِ الغُرَفِ قَدْ أُحْكِمَ سَدُّها، ما عدا نافِذَةً صَغيرَةً في حُجْرَةِ تشارلي بيتس، ومِنْها أَخَذَ يَصْرُخ طالبًا النَّجْدَةَ. وَعِنْدَما ظَهَرَ سايكس فَوْقَ سَطْحِ المَنْزِلِ، نَبَّهَ تشارلي الجَمْعَ الهادِرَ إليْهِ. وَفي لَمْحِ البَصَرِ بَدَأَ تَدَفُّقِ الجُموع إلى خَلْفِ المَنْزِلِ.

سارَ سايكس بِبُطْءٍ على سَطْحِ المَنْزِلِ، وَاتَّجَهَ ناحِيَةَ جِدارٍ خَفيضٍ، إلّا أنَّ المَدَّ كانَ قَدِ انْحَسَر، وَتَحوَّلتِ القَناةُ إلى مُسْتَنْقَعٍ مِنَ الوَحْلِ.

كَتَمَ الجَميعُ أنْفاسَهُمْ وَهُمْ يُراقِبونَ حَرَكاتِ القاتِلِ غَيْرَ مُدرِكينَ نِيَّتَهُ، وَعِنْدَما أدْرَكوا مُرادَهُ، وأَيْقَنوا بِعَجْزِهِ عَنِ الهَرَبِ أطلقوا صَيْحاتٍ عالِيَةً- تُعَبِّرُ عَنِ انْتِصارِهِمْ- هَزَّتْ أرْجاءَ المَكانِ، حَتّى بَدَتْ كافَّةُ الصَّرَخاتِ الأُخْرى بِالمُقارَنَةِ بِها هَمْسًا.

أثارَ عُنْفُ الجُموعِ مَخاوِفَ سايكس، فارْتَدَّ إلى الوَراءِ، ثُمَّ قَرَّرَ أنْ يَقومَ بِمُحاوَلَةٍ أخيرةٍ لإنْقاذِ حَياتِهِ. سَيُجازِفُ بِالقَفْزِ في القَناةِ



مُتَحَدِّيًا الغَرَقَ وَالاخْتِناقَ في الطَّمْيِ اللَّزِجِ. سَيَهْرُبُ وَسْطَ جُنْحِ الظَّلامِ، وَيَنْجو بِحياتِهِ.

دَبَّتْ فَجْأَةً في أَوْصالِهِ الرَّغْبَةُ في الحَياةِ فَهَبَّ واقِفًا، وَرَبَطَ طَرَفَ الحَبْلِ بِقُوَّةٍ حَوْلَ المِدْخَنَةِ، وَعَقَدَ الطَّرَفَ الآخَرَ على هَيْئَةِ أُنْشوطَةٍ حَتَّى يُمْكِنَهُ القَفْزُ قَريبًا مِنَ الأَرْضِ، وَأَمْسَكَ بِيَدِهِ سِكِّينًا لِقَطْعِ الحَبْلِ.

وَضَعَ سايكس الأُنْشوطَةَ حَوْلَ رَقَبَتِهِ اسْتِعْدادًا لِلَفِّها حَوْلَ وَسَطِهِ، وَفَجْأَةً صَرَخَ بِصَوْتٍ عالٍ.

«آه! العُيونُ تَلوحُ مَرَّةً أُخْرى!»

ارْتَدَّ سايكس إلى الوَراءِ كَأَنَّما قَدْ مَسَّتْهُ صاعِقَةٌ، فَاخْتَلَّ تَوازُنُهُ، وَسَقَطَ مِنْ شاهِقٍ وَالأُنْشوطَةُ حَوْلَ رَقَبَتِهِ.

انْتَفَضَ الجَسَدُ المُعَلَّقُ في الهَواءِ، وَارْتَعَدَتْ أَوْصالُهُ، وَتَأَرْجَحَ وَيَدُهُ قابِضَةٌ عَلى السِّكِّينِ بِإِحْكامٍ.

الفصل الثامن والعشرون

نِهايَة فاجِن

اكْتَظَّتْ قاعَةُ المَحْكَمَةِ بِعَدَدٍ غَفيرٍ مِنَ الأشْخاصِ. واشْرَأَبَّتِ الأعْناقُ، وَتَطَلَّعَتْ نَظَراتٌ فُضوليَّةٌ، وَتَوَجَّهَتْ جَميعُها إلى شَخْص واحِدٍ: فاجِن.

وَقَفَ اليَهودِيُّ في قَفَصِ الاتِّهام، وأرْهَفَ أذُنَيْهِ حَتَّى يَسْتَمِعَ لِكُلِّ كَلِمَةٍ يَتَفَوَّهُ بِها القاضي. وأخَذَتْ عَيْنا فاجِن تَتَرَدَّدُ بَيْنَ الحاضِرينَ، ومُحامِيهِ، وَكَأنَّهُ يَتَوَسَّلُ إلَيْهِ صامِتًا أنْ يُنْقِذَهُ مِنْ هذا العَذابِ.

وَأخيرًا، أمَرَ القاضي الحاضِرينَ بِالتِزامِ الصَّمْتِ، ثُمَّ أعْلَنَ الحُكْمَ: الإعْدامُ شَنْقًا.

دَوَّتْ جَلبَةٌ شَديدَةٌ، وَصَرَخاتٌ عالِيَةٌ مِنَ الحاضِرينَ، هَزَّتْ

أَرْجاءَ القاعَةِ، وَبَعْدَ أَنْ هَدَأَ الجَميعُ، سَأَلَ القاضي فاجِن إذا كانَ يَوَدُّ أَنْ يُعَقِّبَ بِشَيْءٍ، ولكِنَّهُ لم يَسْتَطِعْ أَنْ يَزيدَ على القَوْلِ بِأَنَّهُ رَجُلٌ عَجوزٌ، وَمِسْكينٌ.

قادَ الحُرّاسُ فاجِن إلى زِنْزانَةٍ حَتّى يَحينَ مَوْعِدُ تَنْفيذِ الحُكْمِ.

قَبَعَ فاجِن وَحيدًا عَلى مَقْعَدٍ حَجَرِيٍّ. وَحاوَلَ جاهِدًا تَجْميعَ أَفْكارِهِ المُشَتَّتَةِ، ثُمَّ رَدَّدَ كلماتِ القاضي: «الحُكْمُ بِالإِعْدامِ شَنْقًا.»

حَلَّ الظَّلامُ، وَحَلَّ مَعَهُ إِحْساسٌ شَديدٌ بالكَآبَةِ. جَلَسَ يُفَكِّرُ: كَمْ مِنَ الرِّجالِ لقوا حَتْفَهُمْ عَلى يَدَيْهِ! وَازْدادَ إِحْساسُهُ بِوَحْشَةِ المَكانِ، فَبَدَأَ يَدُقُّ الباب بِعُنْفٍ، حَتّى حَضَرَ أَحَدُ الحُرّاسِ، وَمَعَهُ شَمْعَةٌ، وفِراشٌ لِيَبيتَ عَلَيْه.

وَفي اليَوْمِ التّالي دَخَلَ الجَلادُ عَلى فاجِن، وَأَخْبَرَهُ بِأَنَّ ثَمَّةَ شَخْصًا يَوَدُّ رُؤْيَتَهُ.

دَخَلَ السَّيِّدُ براوِنْلو إلى الزِّنْزانَةِ، وَقالَ لليَهودِيِّ بِحَزْمٍ: «لَقَدْ أَوْدَعَ عِنْدَكَ شَخْصٌ يُدْعَى مُونكْس بَعْضَ الأَوْراقِ.»

رَدَّ اليَهودِيُّ: «لا، هَذا غَيْرُ صَحيحٍ. لَيْسَتْ عِنْدي أَيَّةُ

أوْراقٍ.»

«أرْجوكَ، لا داعِيَ للإنْكارِ الآنَ. أنْتَ تَعْرِفُ أنَّ سايكس قَدْ ماتَ. وأن مُونكْس اعْتَرَفَ بِكُلِّ شَيْءٍ. أَخْبِرْني أيْنَ وَضَعْتَ هذِهِ الأوْراقَ.»

وَأمامَ إصْرارِ السَّيِّدِ براوِنْلو، لَمْ يَجِدِ اليَهودِيُّ أمامَهُ مِنْ مَفَرٍّ سِوَى أن يَقول: «الأوْراقُ مَوْجودَةٌ في حَقيبَةٍ مِنَ القُماشِ، بِداخِلِ فُتْحَةٍ أعْلى المِدْخَنَةِ بِالحُجْرَةِ الأمامِيَّة مِنَ الطّابَقِ العُلوِيِّ.»

شَكَرَهُ السَّيِّدُ براوِنْلو وَانْصَرَفَ.

الفصل التاسع والعشرون

الخاتِمَة

تَحدَّدَتْ تَقْريبًا مَصائِرُ شَخْصِيَّاتِ الرِّوايَةِ كافَّةً، وَلمْ يَعُدْ هُناكَ سِوى القَليلِ مِنَ الكَلِماتِ.

فَقَدْ تبَنَّى السَّيِّدُ براوِنْلو أوليڤر، وَانْتَقَلَ أوليڤر ليَعيشَ مَعَهُ عَلى مَقْرَبَةٍ مِنْ مَنْزِلِ السَّيِّدَةِ مايلي وروز. وَهَكَذا تَحَقَّقَتْ أُمْنِيَةُ أوليڤر الأخيرةُ في أَنْ يَعيشَ بِجانِبِ أَصْدِقائِهِ الأعِزَّاءِ.

أمّا مُونكس، فَقَدْ أَخَذَ مَبْلَغًا مِنَ المالِ مِنَ السَّيِّدِ براوِنْلو لِيَبْدَأ بِهِ حَياةً جَديدَةً، ولكِنَّهُ سَرْعانَ ما بدَّده، وعادَ مرَّةً ثانِيَةً لحياةِ السّوءِ وانْخَرَطَ في عالمِ الجَريمَةِ وَالمُجْرِمينَ، وَمِنْ ثَمَّ فَقَدِ انْتَهَتْ حَياتُهُ سَجينًا، حَيْثُ قَضى نَحْبَهُ، وَكذلكَ كانَ مَصيرُ سائِرِ أَفْرادِ عِصابَةِ فاجِن.

أمَّا تشارلي بيتس الَّذي راعَتْهُ جَريمَةُ سايكس البَشِعَةُ، فَقَدْ أدارَ ظَهْرَهُ للماضي، وَبَدَأ عَهْدًا جَديدًا، وَنَجَحَ في نِهايَةِ الأمْرِ في أنْ يَعْمَلَ عِنْدَ أحَدِ المُزارِعينَ، وَيَعيشَ حَياةً هانِئَةً في جَنوبِ إنْجِلترا.

وَبِمُرورِ الأيَّامِ، تَوَطَّدَتْ عُرى الصَّداقَةِ بَيْنَ السَّيِّدِ جريمْويج، والسَّيِّدِ لوزبيرن. وَدائِمًا ما كانَ يُذَكِّرُ السَّيِّدُ براونْلو صَديقَهُ العَنيدَ السَّيِّدَ جريمْويج بِالليْلَةِ الَّتي جَلسَا فيها معًا، وأمامَهُما السَّاعَةُ في انْتِظارِ عَوْدَةِ أوليفر، وَكَيْفَ كانَ السَّيِّدُ جريمْويج يؤَكِّدُ دائِمًا أنَّ أوليفر لنْ يَعودَ أبدًا، وعِنْدَ هذا الجُزْءِ مِنَ الذِّكْرياتِ، تَتَرَدَّدُ أصْداءُ ضَحِكاتِ الصَّديقَيْنِ. أمَّا بِالنِّسْبَةِ للسَّيِّد بامبيل، وَزَوْجَتِهِ فَقَدْ فَقَدَا وَظيفَتَيْهِما في المَلْجَأ. وانْتَهَتْ بِهِما الحَياةُ إلى حالَةٍ مِنَ الفَقْرِ المُدْقِعِ حَتَّى صارا يَتَسَوَّلانِ لقْمَةَ العَيْشِ في المَلْجَأ نَفْسِه الَّذي كانَا يُديرانِه مِنْ قَبْلُ.

تَقَدَّمَتِ السِّنُّ بِالسَّيِّدِ جايلز، وَبرتيلز، وَإنْ ظَلَّا في عَمَلِهِما السَّابِقِ، وَأصْبَحا يُوَزِّعانِ جُهودَهُما بِالتَّساوي بَيْنَ الاهْتِمامِ بِشُؤونِ مَنْزِلِ آل مايلي، وشُؤونِ مَنْزِلِ السَّيِّدِ براونْلو، حَتَّى إنَّ أهالِيَ المِنْطَقَةِ أضْحَوْا غَيْرَ قادِرينَ على مَعْرِفَةِ ما إذا كانا يَعْملانِ لِحسابِ هذا البَيْتِ أو ذاكَ. وَهكَذا جَنَى كُلُّ فَرْدٍ ثِمارَ عَمَلِهِ؛ إنْ خَيْرًا فَخَيْرٌ وإنْ شَرًّا فَشَرٌّ.

الروايات المشهورة

١ - جين إير
٢ - فرانكشتاين
٣ - مونفليت
٤ - دراكولا
٥ - لورنا دون
٦- دكتور جيكل ومستر هايد
٧ - شي الملكة الأسطورة
٨ - كونت مونت كريستو
٩ - الرجل الخفي
١٠ - الزمن العصيب
١١ - الزنبقة السوداء
١٢ - الأمير والفقير
١٣ - سايلاس مارنر
١٤ - الوادي الغاضب
١٥ - أوليڤر تويست
١٦ - دافيد كوبرفيلد

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت

رقم الكمبيوتر 01 C 198117

